صورة الغرب في الكتب المدرسية اللبنانية

نمر فريحة

تعتبر دراسات «الصورة» حديثة نسبياً في عالم البحث. لقد بدأ الباحثون المهتمون، بالشأنين التربوي والسياسي بالتفتيش عن رؤية أو نظرة الآخرين لمجتمعاتهم (الباحثين) إن كان في وسائل الإعلام المرئي والمكتوب التي تتناول قضايا بلادهم السياسية والاقتصادية، أو الكتب المدرسية التي تشرح تاريخ تلك البلدان وتطورها وطريقة حياة شعوبها.

قام بعض الباحثين العرب بدراسة ما كتبته أو تكتبه الصحافة الأجنبية، خصوصاً الغربية منها، عن العرب بشكل عام، وكيف تتعاطى مع الأمور الخاصة بهم. كما تطرق بعضهم إلى دراسة صورة العرب في كتب الغرب المدرسية، أي كيف يرى الغرب العرب. وكانت دراساتهم ذات فائدة هامة من ناحيتين: معرفة كيف ينظر الآخرون إلينا ووجوب إصلاح النظرة السلبية التي يروننا بها لأنها في أغلب جوانبها صورة مشوهة وغير علمية. لذلك أصبح القيام بدارسة مشابهة، لكن باتجاه أخر، أمراً ضرورياً وهو: كيف نصوّر الغرب والغربي في كتبنا المدرسية في لبنان، خصوصاً في كتب القراءة العربية والتاريخ. وهكذا تعتبر هذه الدراسة خطوة من عدة خطوات يمكن أن تحصل لاحقاً لمعرفة نوع الصورة التي نرسمها لأولادنا في المدارس، ولمحاولة تصحيح هذه الصورة إن كانت غير دقيقة في المستقبل نظراً لأهمية الدور الذي تلعبه في تكوين انطباعات

ومواقف لدى الأفراد أو الجماعات، والتي تنعكس غالباً في سلوكاتهم.

مراجعة الأدبيات

لم يتوفر لدينا دراسات قام بها لبنانيون عن صورة الغرب في كتبنا المدرسية، إنما هناك أبحاث أجراها باحثون عرب حول صورة العربي في وسائل الإعلام والكتب المدرسية في المجتمعات الغربية. ففي دراسة استقرائية قامت بها Shelly Slade حول رأي الأميركيين بالعرب، استنتجت أن النظرة إليهم هي أنهم شعب غني لكنه متأخر، وبدائي، وغير متحضر... شعب ملبسه غريب، ويسيء معاملة المرأة، مولع بالحروب، متعطش للدماء، قوي، شديد، بربري وقاس.(١) وقد عكست الصحافة الألمانية صورة سلبية عن العربي معتبرة أن الجندي العربي، على سبيل المثال، لا يلم بالتقنية الحديثة أو بالتنظيم الإداري. وأرجعت الصحافة هذا التخلف إلى نمط عقليته الشرقية الغريبة كل الغرابة عن التقنية والتنظيم (مسلم، ١٩٧٦، ١٨٤).

كذلك حاول ميخائيل سمعان أن يقيس أثر المدارس على الأميركيين عند تعرضها لتطور النزاعات في الشرق الأوسط ولشعوبه. واكتشف بأن «رأي الجمهور الأميركي عن شعوب الشرق الأوسط سواء أكانوا عرباً أم إيرانيين أم فلسطينيين أم مصريين يظل في الأساس رأياً يأخذ بالقوالب الذهنية الثابتة. ورأياً سطحياً...»(٢) ويقيّم سمعان في جزء من دراسته صورة العرب عند طلاب المرحلة الثانوية ومعلميهم الذي يلعبون دوراً مهماً في العملية التربوية، خصوصاً في بناء فكرة عن الآخرين، فوجد أن كتب هذه المرحلة (حيث تركز على تاريخ العالم) تنقل صوراً مشوّهة عن شعوب الشرق الأوسط. كما يولي معلمو المدارس الثانوية الأميركية اهتماماً أكبر بهذه المنطقة مقارنة مع باقي مناطق العالم باستثناء أوروبا. وبأكثرية ٨٥٪ قالوا بأنهم لا يعلمون بوجود أقوال محرّفة عن الوقائع والآراء في شأن الشرق الأوسط في كتبهم المقررة للتدريس.(٣) وبالنسبة لمواقف هؤلاء المعلمين نحو العرب فقد كان موقف ٦٪ منهم إيجابياً، و٢٪ متعاطفاً، و٧١٪ محايداً، و١٪غير متعاطف،

---

(١) Shelley Salde, «**The Image of the Arab in America. Analysis of a Poll on American Attitudes**». Middle East Journal 35, 2 (Spring 1981)& pp. 147-150.

(٢) ميخائيل سمعان، **صورة العرب في عقول الأميركيين**، ترجمة عطا عبد الوهاب، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٧، ص ٩٧.

(٣) المرجع السابق، ص ١٠٣.

و٧٪ سلبياً، و٣٪ بدون رأي. أما ما يعتقدونه حول مواقف طلابهم، فقد رأى بعضهم أن تلاميذهم يتبعون القوالب الجاهزة في تكوين الصورة السلبية في أذهانهم عن شعوب الشرق الأوسط.(٤)

وإذا انتقلنا من المدارس إلى الصحافة، «فقد عكست الصحافة البريطانية في الستينات والسبعينات تحيزاً ثقافياً ذا استعلاء عرقي في نشر أحداث الوطن العربي... وأن المشرق المعاصر والمتغير بالنسبة إلى الجرائد البريطانية ما يزال إلى حد ما مشرق المستشرقين «الخامد» والهامد والمثقل بالتقاليد (ساري، ١٩٨٨، ٢٧٨). وفي تحليل هذه الصحافة للشخصية العربية، تبين أنها ركزت على ميل العرب للاعتماد على الماضي، وبأن العرب كسالى، شرقيون عديمو المقدرة، إعتدائيون، وقساة. وبالنسبة للمرأة العربية، فهي محجبة وتعيش في «نظام الحريم»، بقابلها أحياناً نظرة معاكسة (خصوصاً للمتعلمة) بأنها امرأة مثقفة تكافح من أجل تحررها من هيمنة الرجل.

أما مارلين نصر التي أجرت بحثاً عن «صورة العرب والإسلام في الكتب المدرسية الفرنسية» فتبين أن الشخصيات العربية التي تظهر في الأنماط الأدبية فقيرة وتعيش في أدنى السلم الإجتماعي.(٦) وأن الماضوية هي السمة الرئيسية لتمثيل العرب في كتب القراءة للمرحلة الابتدائية.(٧) كذلك وجدت الباحثة «على مستوى النص القائم للقصص التاريخية والأدبية الواردة في كتب التاريخ والقراءة أن فكرة المجابهة والتبعية تميز العلاقات القائمة بين الفرنسيين والعرب سواء في المرحلة الابتدائية أو المرحلة الثانوية».(٨) وأن العرب فاعل سلبي بينما الفرنسيون فاعل إيجابي. ويظهر هذا الفارق العام في طبيعة الأفعال المسندة إلى كل من الفاعلين الفرنسيين والعرب في الكتب المدرسية حيث فعل الفاعل العربي في معظم الأحيان ذو طابع سلبي، وفي المرات القليلة التي يكون فيها صاحب المبادرة أو الفعل المباشر

(٤) المرجع السابق، ص ١٠٤.

(٥) حلمي خضر ساري، **صورة العرب في الصحافة البريطانية**، ترجمة عطا عبد الوهاب، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٨، ص ٣٠١.

(٦) مارلين نصر، **صورة العرب والإسلام في الكتب المدرسية الفرنسية**، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٥، ص ٥٣.

(٧) المرجع السابق، ص ٣٠٨.

(٨) المرجع السابق، ص ٣٠٧.

فإنه يتخذ موقفاً عدوانياً[٩].

تظهر صورة العرب من خلال هذه النماذج سلبية ومحرّفة ومقولبة في الصحافة وفي الكتب المدرسية. وهذا ليس عاملاً إيجابياً في بناء جسر التواصل الفكري والثقافي بين الغرب والشرق. لكن، كيف ننظر نحن للغرب من خلال كتبنا المدرسية، أو بعضها، وهل الصورة التي نرسمها عن الغربي والغرب سلبية، حيادية، أم إيجابية؟ هذا ما ستحاول هذه الدراسة الإجابة عنه من خلال اتباع خطوات البحث بطريقة علمية، مبتدئين بتعريف المفاهيم الأساسية المستعملة في الدراسة ثم عرض لطريقة البحث من جمع معلومات وتحليلها واستنتاج عناصر الصورة المؤثرة في الكتب قيد الدراسة.

تعريف المفاهيم:

- الصورة: تعبير أو تعابير ذات دلالات معينة ومقصودة نرسم بواسطتها صفات فرد أو شعب، أو مجموعة شعوب، حيث تترك انطباعاً سلبياً أو إيجابياً لدى القارىء أو متلقي هذه التعابير.
- الصورة المقولبة: Stereotype إنها التعبير اللفظي لاقتناع موجّه إلى جماعة إجتماعية أو إلى فرد من أفرادها. ومن ناحية الشكل المنطقي تبدو حكماً تمنح طبقة من الأشخاص، أو تمنع عنها صفات محدودة، أو طرقاً مسلكية معينة بطريقة مبسطة تعميمية غير مسوغة ومغلفة بقيم عاطفية.[١٠]
- الحكم المسبق: Preconception موقف أو مواقف سلبية أو رافضة تتخذ تجاه شخص أو جماعة من الأشخاص حيث تحصل هذه الجماعة بسبب المواقف المقولبة على صفات محددة أصلاً، يصعب جداً تصحيحها بسبب الجمود والعناء والشحنات الانفعالية.[١١]
- الموقف: هو تعبير كلامي أو سلوك فعلي يوحي برأي صاحبه ويعكس تصرفاته تجاه شخص ما أو مجموعة ما، أو وحدة معنوية (دولة، وطن،...). وكما يقول Earl Davis: إن الأحكام المسبقة، والصورة المقولبة، والتشبيهات ليست إلا

---

(٩) المرجع السابق، ص ١١٣.

(١٠) التعريف لـ Uta Quasthoff كما ورد في: سامي مسلم، **صورة العرب في صحافة المانيا الاتحادية**، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٦، ص. ١٨.

(١١) Earl Davis كما ورد في المرجع السابق، ص١٨.

جوانب جزئية من مصطلح أساسي أكثر شمولاً هو المواقف سواء أكانت هذه المواقف في حالة الإدراك أو في حالة الانفعال، أو في النزوع.(١٢)

أهداف الدراسة:

الهدف الأساسي للدراسة هو تبيان صورة الغرب في كتبنا المدرسية. وهذا قادنا إلى طرح تساؤلات تشكل الإجابة عليها أهدافاً ثانوية للدراسة، وتتلخص بالتالي:

- ما هي الموضوعات التي تمثلها النصوص حول الغرب في الكتب قيد الدراسة؟
- ما هي الموضوعات التي أثارتها هذه الكتب (سياسية، إقتصادية، إجتماعية،..) والتعابير التي استعملت فيها؟
- هل المواضيع التي تناولتها كتب التاريخ أتت بشكل سردي، أم تضمنت بعض التحليل والتفسير للأسباب والنتائج؟
- هل تعاملت الكتب بنفس المنهجية والرؤية مع كل المواضيع، أم أن التباين فيما بينها (الكتب) كان ظاهراً؟
- هل تعاطت الكتب المدرسية مع مواضيع ترتبط بالشعوب الغربية، أم اقتصرت على الحكام، والقواد العسكريين، والنخب؟
- هل للعامل الزمني دور في رسم صفات الغرب (حضارات الغرب قبل المسيحية، بين بداية المسيحية والحروب الصليبية، قبل فترة الاستعمار وبعده...)؟
- هل هناك توازن في الصورة بين الصفات الجيدة والصفات السيئة للغرب؟ واستطراداً هل كان هناك تغييب لبعض هذه الصفات؟
- هل الصورة التي ظهرت في كتبنا كانت مقولبة؟ واستطراداً:
- هل هناك أحكام مسبقة تعمّدها مؤلف (مؤلفو) الكتب؟

ستحاول الدراسة الإجابة عن هذه التساؤلات بطريقة دقيقة وعلمية من خلال اعتماد طريقة البحث التالية.

طريقة البحث:

إن طريقة البحث المعتمدة في هذه الدراسة هي تحليل المضمون بشقيه الكمّي

(١٢) المرجع السابق، ص. ١٨.

والنوعي. إن استعراضاً سريعاً لهذين النوعين لا بدّ منه لتوضيح الإطار البحثي المستعمل. فمؤيدو تحليل المضمون النوعي لا يؤمنون بأهمية تكرار بعض المصطلحات والتعابير اللفظية بقدر ما يركزون على الإطار الاجتماعي لأي موضوع قيد البحث لتأتي الأحكام والاستنتاجات منسجمة مع خلفية التحليل والتفسير. أمّا أنصار تحليل المضمون الكمّي فلا يرون أي معنى لتحليل المضمون إن لم يتمكنوا من الإجابة عن السؤال الذي تتم معالجته بطريقة كمية. بالرغم من تباين وجهات النظر بين مؤيدي هذا الشق أو ذاك، فقد وجدنا بالنسبة لهذه الدراسة أن اعتماد النوعين يخدم هدفها الأساسي ويساعد على الإجابة عن التساؤلات التي طرحت كأهداف ثانوية. بالنسبة لاستعمال التحليل الكمّي ستكون هناك جداول بعدد الصفحات أو الدروس التي تناولت الغرب لقياس نسبتها إلى مجموع صفحات أو دروس الكتاب، كذلك هناك جداول بالمواضيع التي عالجتها كتب التاريخ، والتعابير التي استعملت (بغض النظر عن تكرارها) حيث تساعد هذه المقاربة الكمية في رسم إطار الصورة للغرب وللغربي في هذه الكتب. كما ستؤخذ نماذج من النصوص كعينات لتحليلها في إطارها التاريخي والاجتماعي والسياسي لكشف عناصر الدراسة التي تساعد في إتمام رسم الصورة بكل تفاصيلها. أمّا المعلومات التي تشكل المادة الأولية للدراسة فتجمع من عينة من الكتب اختيرت على أساس أنها من بين أكثر سلاسل الكتب استعمالاً في المدارس العامة والخاصة خلال الثمانينات والتسعينات.

واقتصرت هذه السلاسل على كتب مادتي القراءة العربية والتاريخ حيث الاعتقاد أنهما تتطرقان أكثر من غيرهما لمواضيع حول الغرب. وقد تعمّدنا أيضاً أن تتضمن العينة كتاباً للقراءة العربية وآخر للتاريخ لصفوف الرابع الابتدائي، والسابع، والأول الثانوي حيث بدأ تطبيق المناهج الجديدة بها. وبما أن كتب التاريخ لم تصدر بعد، فاقتصر هذا الجزء على كتب القراءة وأبقي على كتب التاريخ التي ما زالت معتمدة إستناداً للمناهج القديمة. وقد بلغ عدد كتب القراءة واللغة العربية التي تناولتها الدراسة ١٨ كتاباً بينما بلغ عدد كتب التاريخ ٣٣ كتاباً، أي ما مجموعه ٥١ كتاباً.

ومن الملاحظ أن بعض أجزاء سلسلة كتب معينة غير موجود، ويعود ذلك إلى مؤلّفي السلسلة الذي اكتفوا بالتأليف لعدد معيّن من الصفوف أو لمرحلة تعليمية معينة. ستؤخذ المعلومات Data التي لها علاقة بموضوع الدراسة من الكتب

المدرسية، ثم تصنّف في أبواب محددة، وتخضع بعدها هذه المعلومات التي هي بشكل تعابير وجمل للتفسير والتحليل للمعنى الظاهري والخفي الذي تحمله لوضعها في فئات دلالية حيث تستنتج من خلالها الصورة، ويسهل الحكم عليها (الصورة) ما إذا كانت مقولبة وخاضعة لأحكام مسبقة أم لا.

أمّا الخطوة الأخيرة في طريقة البحث فهي الاستنتاجات التي تصل إليها الدراسة عن صورة الغرب، ونوعها(غرب صديق، عدو، إنتهازي،...) وكيف انعكست في محتوى كتبنا المدرسية.

لقد اخترنا ثلاث سلاسل لكتب القراءة وست سلاسل لكتب التاريخ، إضافة إلى الكتب الثلاثة في القراءة والأدب مبتدئين بتحليل كتب القراءة.

صورة الغرب في كتب القراءة العربية

ثلاث سلاسل، وثلاثة كتب مختلفة (للصفوف التي تطبق عليها المناهج هذه السنة) هي قيد التحليل في هذه الدراسة. والسلاسل هي:

- **عقود الكلام: قراءة وتعبير**، أول، ثان، ثالث، ورابع إبتدائي. تأليف الياس حداد، كمال الشرتوني، وهنري زغيب. بيروت: دار المشرق.
- **القراءة والتعبير**، أول، ثانٍ، ثالث، رابع، وخامس إبتدائي. تأليف صادق مكّي وآخرين. بيروت: دار بدران.
- **قراءتي المصورة**، أول، ثانٍ، وثالث إبتدائي.
- **كلمات وصور**، رابع وخامس إبتدائي.
- **أجنحة وآفاق**، أول، ثانٍ ثالث ورابع متوسط. تأليف عبده لبكي، بيروت: دار الإبداع.

أمّا الكتب الثلاثة التي اختيرت كنماذج لمحتوى المناهج الجديدة التي صدرت عام ١٩٩٧ وبدا تطبيقها في العام الدراسي ١٩٩٨ ـ ١٩٩٩ فهي:

- **حصاد الكلمات**، رابع إبتدائي. تأليف عبده لبكي، ١٩٩٨.
- **القراءة المنهجية**، السنة السابعة الأساسية، إعداد منى زبليط وآخرين، ١٩٩٨.
- **المفيد في الأدب العربي**، أول ثانوي. تأليف أحمد أبو حاقة وآخرين، ١٩٩٨.

ما تجدر الإشارة إليه هو أن كتاب الصف الإبتدائي الأول في كل السلاسل

تضمن بعض العبارات ولا يشتمل على نصوص، لذلك لن يدخل في عملية التحليل. وهكذا، فإن سلسلة عقود الكلام، المؤلفة من أربعة أجزاء، ستعالج الأجزاء الثلاثة منها التي تلي الجزء الأول لنرى أولاً المساحة التي أعطيت لمواضيع عن الغرب، تتبعها باقي السلاسل كما وردت بالترتيب أعلاه.

جدول١:
المساحة التي يشغلها الغرب في سلسلة
عقود الكلام: قراءة وتعبير

الصف	عدد صفحات الكتاب	عدد الصفحات حول الغرب	النسبة المئوية
إبتدائي ثانٍ	٢٣٩	-	-
إبتدائي ثالث	٢٣٩	٤	١,٦٧
إبتدائي رابع	٢٧٥	٥	١,٨
المجموع	**٧٥٣**	**٩**	**١,١٩**

إن ما ورد في هذه السلسلة حول الغرب قليل جداً، إذ أن تسع صفحات في سلسلة لن تعطي صورة واضحة عن الغرب. ففي درس في كتاب الصف الثالث يدور حول قصة هنغارية، توجد رسائل أخلاقية حيث أن رجلاً من عامة الشعب يزوره الملك المتنكر، لكن هذا الرجل يراعي أصول التعامل الإجتماعي حتى ولو استعمل القسوة، ويتبنى موقفاً أخلاقياً تمثل في رفضه للطمع. حتى أن الملك قال له بأنه يود أن يصطحبه معه ليؤدب الأمراء الطماعين. ففي هذا الدرس تظهر صورتان، واحدة لإنسان عادي وصاحب مبادىء وتصرفات حسنة، وأخرى لملك يود مكافحة الطمع في صفوف أمرائه، وكلتاهما إيجابيتان.

والدرس الآخر الوارد في كتاب الصف الخامس بعنوان «العازف الخفي» عن فريدريك شوبان الطفل وهو يعزف حيث يترك النص انطباعاً جيداً عن موهبة وتنمية مهارة الطفل في المجتمع الغربي.

أمّا في سلسلة **القراءة والتعبير**، فالجدول التالي يعطي فكرة أولية عن كمية الصفحات الواردة فيها:

جدول٢:
المساحة التي يشغلها الغرب في سلسلة
القراءة والتعبير

الصف	عدد صفحات الكتاب	عدد الصفحات حول الغرب	النسبة المئوية
إبتدائي ثانٍ	٢٢٦	-	-
إبتدائي ثالث	٢٩٤	٢	٠,٦٨
إبتدائي رابع	٢٩٤	١٤	٤,٧٦
إبتدائي خامس	٢٩٤	١٢	٤,٠٨
المجموع	١١٠٨	٢٨	٢,٥٢

ما يشير إليه هذا الجدول هو النسبة القليلة من صفحات هذه السلسلة التي اقتصرت على الصفوف الثالث والرابع والخامس وتناولت مواضيع عن الغرب. هذا مع العلم أن هناك درساً قد ورد في كتاب الصف الثاني بعنوان «لعبة الكرسي الموسيقية» والتي حوّرها المؤلف ليلبسها اللباس اللبناني، إذ تبدأ القصة «سألت سميرة أخاها...» ومن المعروف أن هذه اللعبة غربية، وممارستها في لبنان محدودة أو نادرة.

القسم الأكبر من الدروس وملحقاتها الواردة عن الغرب هي ذات طابع علمي، أي أنها تتحدث عن اختراع «الدينامو»، الكومبيوتر، والطباعة، والباروميتر، والراديو... وحتى أن الأسلوب الكتابي علمي حيث لا تحمل الكلمات دلالات إعجاب أو إطراء بالنسبة لمخترعي هذه الآلات، وكأن الهدف هو عدم التأثير على الناحية الانفعالية عند التلميذ كي لا يقدر هؤلاء الغربيين الذين قاموا بهذه الاختراعات. وفي مقارنة ضمنية، ومن خلال نص ثانوي بعنوان «الطيران» يظهر الكاتب «أن عباس بن فرناس الذي توفي في القرن التاسع، كان أول من حاول الطيران عندنا»[١٣] يلي ذلك كيف اخترع الإنسان الطائرة وطوّرها. ولكن لم يذكر المؤلف أي إسم من الغربيين الذين

(١٣) صادق مكي وآخرون، **القراءة والتعبير**، الجزء الرابع، بيروت: بدران، ١٩٩٦، ص. ١٧٥.

اخترعوا الطائرة وقاموا بأول رحلة طيران. حتى أنه لم يقل بأن الأوروبيين أو الأميركيين فعلوا ذلك. وعندما يذكر الكاتب أسماء بعض المخترعين أو رواد الفضاء من خلال إنجازاتهم، يبقى أسلوبه سردياً، علمياً، وكأنه ليس لمادة أدبية. هناك استثناء واحد مأخوذ من أحد الكتّاب الأجانب يصف به نماذج عملية إطلاق صاروخ وكيف أنه لم يتمالك نفسه فراح يصفق لهذا العمل العظيم.

إن كتب هذه السلسلة لم تشأ أن تركز على الغرب أو أن تبرز منجزاته أو تقتبس من أدب أطفاله. لذلك اكتفت بتبنّي النصوص التي تدور حول المواضيع العلمية. وهذا ما يترك تساؤلاً حول الاهتمام بالمواضيع العلمية في كتب للقراءة تحمل نصوصها عادة تعابير مشحونة بالعاطفة، أكثر مما تكون مكتوبة بشكل علمي جاف وكأننا نقرأ في مجلة علمية.

أمّا السلسلة الثالثة فتحمل أكثر من عنوان مع أن المؤلف واحد. فهي كما ذكر سابقاً، تتضمن كتب **قراءتي المصورة وكلمات وصور** للمرحلة الابتدائية، **وأجنحة وآفاق** للمرحلة المتوسطة. أمّا نسبة إشغال الغرب لبعض صفحاتها فيظهر من الجدول التالي:

جدول ٣:

المساحة التي يشغلها الغرب في سلسلة قراءتي المصوّرة

الصف	عدد صفحات الكتاب	عدد الصفحات حول الغرب	النسبة المئوية
إبتدائي ثانٍ	٩٩	٢٦	٢٦,٢٦
إبتدائي ثالث	٩٥	١٥	١٥,٧٨
إبتدائي رابع	١٤٤	١٣	٩,٠٢
إبتدائي خامس	١٦٧	٣٤	٢٠,٣٥
متوسط أول	٢٧٩	٤٢	١٥,٠٥
متوسط ثانٍ	٢٥٥	٢١	٨,٢٣
متوسط ثالث	٢٥٥	٣٥	١٣,٧٢
متوسط رابع	٢٨٧	٦	٢,٠٩
المجموع	١٥٨١	١٩٢	١٢,١٤

نلاحظ في هذا الجدول أن نسبة الدروس التي تطرقت إلى مواضيع خاصة بالغرب لا بأس بها، خصوصاًإذا قارناها بالسلسلتين السابقتين. وقد تركز أكثرها في كتب المرحلة الابتدائية. كذلك هناك جزء مترجم لا بأس به، وجزء آخر بقلم كتّاب عرب. وعن سبب ضمّه لعدد من النصوص المترجمة إلى كتب هذه السلسلة يقول المؤلف عبده لبكي: «إن اختياري للنصوص الغربية المترجمة هو اختيار لمحور إنساني / إجتماعي / حضاري شمولي، ولم يكتب عنه في لبنان أو باللغة العربية لأسباب كثيرة منها أنه ليس موضوع استثارة لنا، بينما أراه شخصياً بأنه مهم. ولهذا ضممته في كتبي»[١٤]. وعن الهدف من اختياره هذه النصوص بالذات يجيب لبكي: «من أهدافي أن أعطي نموذجاً عن تجارب يعيشها الغربيون ويكتبون عنها بينما نحن نعيشها ولا نكتب عنها لإغناء تراثنا «كقصة الدببة». لماذا لم يكتب أحد مهاجرينا عن الدببة أو عن أدغال الأمازون؟ خذ مثلاً نص «عفريت في التلفون»، مهما كان الموضوع تافهاً، فالعبقرية هي أن تحوله إلى أثر علمي وأدبي».[١٥]

وعند التركيز على النصوص التي تتكلم عن الغرب، أو المقتبسة من أدب الأطفال الغربي لصفيّ الثاني والثالث الابتدائيين، نجدها تدور حول قصص وهمية يساعد البطل غيره وينقذه من مأزق، أو من ضمن الأدب الاجتماعي حيث تعالج بعض الأوضاع كالفقر، فإذا بالمقتدر يساعد المحتاج، وكيف ينتصر الخير على الشر في كل القصص. كذلك النصوص المختارة من كتابات عربية نجدها تعطي صورة إيجابية عن الغرب فمثلاً «القمر ورواد الفضاء» لجميل يوسف حيث يقول: «كان المهندسون والعمال يعملون بجد ونشاط... كل واحد منهم يعرف عمله بالضبط... حضر رواد الفضاء وكانوا في غاية الشجاعة والذكاء وحسن التصرف».[١٦] كما يظهر هذا النص الإبداع التقني والتكنولوجي للأميركيين مما يدفع إلى التقدير والافتخار. وتظهر مع النص صور لرواد الفضاء الأميركيين الذين وطأوا القمر، وصورة للرئيس كنيدي الذي كان وراء الفكرة.

وتستمر صورة الغربي الحسنة بالظهور، ففي قصة «قافلة العربات والهنود الحمر» ينتصر العقل والحوار على سوء النيّة أو سوء التوقع، ويتفاهم البيض والهنود

(١٤) من مقابلة شخصية أجريت مع عبده لبكي بتاريخ ٩٨/١١/٣.
(١٥) المرجع نفسه.
(١٦) عبده لبكي، **كلمات وصور**، السنة الابتدائية الرابعة، زوق مكايل: مكتبة نوفل. ١٩٨٦ ص٣٧.

دون قتال. وفي قصة «رحلة جون بالطائرة» تظهر هذه الفتاة الفرنسية الشابة تقود الطائرة في رحلة من فرنسا إلى أفريقيا«[١٧] وفي هذا صورة لدور الأنثى في الغرب، خصوصاً عندما تقود طائرة فهي متفوقة كالرجل.

أمّا المظاهر العمرانية والآثار فلها حصة في هذه السلسلة، وفي نص عن لبناني مهاجر يصف نيويورك «بالمدينة العظيمة»، وفي نص آخر بعنوان «بلاد الآلهة» يظهر الكاتب إعجابه بالآثار الإغريقية والشوارع الفسيحة والأبنية الحديثة في اليونان بأسلوب أدبي جميل.

فأغلب النصوص في المرحلة الإبتدائية عن الغرب تدور حول بعض مظاهر الحياة وتعطي انطباعاً حسناً ليس عن طريقة حياة الغربيين، بل عن اهتماماتهم التي تتجاوز حياتهم الشخصية لتصل إلى الاهتمام بالناس الآخرين، وحتى بالحيوانات والطيور وبعناصر البيئة. وهكذا يبدو هذا الغربي العادي نموذجاً يحتذى في الانتباه للمحتاج، والحفاظ على البيئة.. وبعض النصوص من أدب السيرة حيث ركّزت على العظماء أمثال أديسون، شارلي شابلن، وشوبان وآخرين.

أمّا كتب المرحلة المتوسطة، فإن النماذج تتغير وكذلك الرسالة من خلال النصوص. فإذا بنا أمام «كريستوف كولومبس» وتركيزه على الصبر والأمل. وكذلك «فاسكو دي غاما» وقد وصل الإثنان إلى هدفهما. وعند تناول النصوص لأجانب عاديين عاشوا عندنا فنرى صورة قوية ومؤثرة كما في درس «معلمة مثالية» وهي أجنبية درست في إحدى مدارس بيروت حيث عملت «مجازفة بقواها إلى أبعد ما تحتمل القوى البشرية... كانت مهفهفة، جداً أنيقة».[١٨] أو كما في نص عن الأم تريزا «أم الفقراء». فالمرأة الغربية حتى ولو كانت تعيش خارج الغرب إنما هي دؤوبة في شغلها، مضحية حتى بصحتها لتقوم بعملها بشكل كامل.

كذلك لا تخلو كتب المرحلة المتوسطة من صور سلبية عن الغرب قديماً وحديثاً. فدرس «عبيد روما» و«دار النخاسة» يظهر الغربي قاسياً على أخيه الإنسان، يمتلكه ويبيعه ساعة يشاء وكأنه سلعة. كذلك يرد وصف لمدينة نيويورك هو نقيض ما سبق ولمحنا إليه عن المهاجر اللبناني، حيث يصب محمود تيمور هنا كل غضبه

---

(١٧) المرجع السابق، ص. ٩١.

(١٨) عبده لبكي، **أجنحة وآفاق**، السنة الثانية المتوسطة، بيروت: دار الإبداع، ١٩٩٣، ص. ١٨ ـ ٢٠.

على الحضارة المتمثلة بالمدن الغربية كنيويورك فيقول عن الناس فيها «إنها قوالب، قوالب تتحرك في الطريق بلا روح ولا حس، وقوالب أخرى قائم بعضها فوق بعض (يقصد الأبنية). حجارة تتوالى متحركة وأخرى تتراص متعالية».[١٩] إذ لم يفرق الكاتب بين هذين النوعين من «القوالب» و«الحجارة» إلا بواسطة الحركة التي لا يعطيها أية حياة ولا معنى ليستخلص في النص نفسه «ويل للإنسانية من طابع تلك الحضارة». بالرغم من بعض المظاهر السلبية التي عكستها بعض النصوص، تبقى صورة الغرب والغربي جيدة، فيها من الإنجازات والإبداع والاهتمام الإنساني والخير ما يجعلها تطغى على الصورة الأخرى التي ظهرت أحياناً حيث تطغى اللاإنسانية أو اللامبالاة.

إن الكتب الثلاثة التي وضعت حسب المناهج الجديدة للصفوف الرابع والسابع من التعليم الأساسي، والثانوي الأول قد عولجت بشكل إفرادي. ففي كتاب **حصاد الكلمات** للصف الرابع شغل القسم الخاص بالغرب ٢,٥٢٪ من مجموع الصفحات حيث تضمنت النصوص الأساسية والنصوص المساعدة أموراً مختلفة عن الغرب من نص وثائقي إلى وصف الطيران بواسطة المنطاد حيث هناك مديح بالأخوين «مونتفولفيه» على اعتبار أن اليوم الأول للطيران سيظل «من أشهر الأيام في تاريخ البشرية».

أما الدروس المخصصة للغرب في كتاب **القراءة المنهجية** للصف السابع فتشغل ٥,٧٩٪ من حجم الكتاب، منها المترجم، ومنها ما كتبه عرب. والجديد الذي يلاحظه القارىء في هذا الكتاب هو اقتباس أخبار من الإعلام مصورة مباشرة من الجرائد، وتغطي بشكل عام أخبار أبطال رياضيين، أو علماء. كذلك هناك الأدب الوجداني الذي تمثله بعض النصوص. والصورة المعطاة للغرب وللغربي حيادية بشكل عام حيث لا يظهر في النص أي تعاطف مع الغربي ولا يتضمن عبارات تدل على المديح أو الثناء.

لا نجد دروساً مخصصة للغرب أو الأدب الغربي في كتاب **المفيد في الأدب** للصف العاشر أو الأول الثانوي. لكن وردت بعض الأفكار والأقوال والانطباعات عن الغرب أثناء استعراض أبواب اللغة والأدب. إذ يقول المؤلفون عند الحديث عن

(١٩) عبده لبكي، **أجنحة وآفاق**، السنة الرابعة المتوسطة، بيروت: دار الإبداع، ١٩٩٤، ص. ١٨٢.

المسرح إن أول من أدخله إلى البلاد العربية رجال الحملة الفرنسية، لكن المصريين ظلّوا بعيدين عنه».[٢٠] وعن حركة الترجمة والنقل هناك اعتراف بتقدم النتاج الفكري الغربي، «كان من نتائج اتصال العرب بالحضارة الغربية أن أعجبوا بالنتاج العلمي والأدبي والفكري لدى أصحابها».[٢١] ويذهب المؤلفون أبعد من ذلك بإعطاء مسحة إيجابية للمستشرقين الذين «كان لدراستهم فضل كبير على اللغة العربية وآدابها».[٢٢] وربما هذا أكثر ما يمكن أن يقوله عربي عن غربي بالنسبة لمساهمة الأخير في تطوير اللغة العربية.

لكن ما تلبث هذه الصورة التي تمثلت بعبارات إيجابية: أول من أدخل المسرح إلى البلاد العربية؛ أعجب العرب بنتاج الغرب العلمي والأدبي والفكري؛ كان لدراسة المستشرقين فضل كبير على اللغة العربية... ما تلبث أن تتحول قليلاً لتصبح رمادية حيث يظهر القبول والرفض أو التردد من خلال التساؤل: إلى أي حدّ تصلح المدنية الغربية للشرق العربي؟ وتبدأ الصورة السلبية بالاتضاح أكثر عند القول «بأن المدنية الغربية المسيطرة على العالم كله اليوم تعاني من المشكلات المعقدة والخطيرة التي تنذر بكارثة كبرى... لأن النمو العقلي وما أدى إليه من عجائب الاكتشافات والاختراع لم يرافقه نمو أخلاقي ووجداني.. وقد أدى ذلك إلى طغيان الشهوات والميول الفاسدة والأنانية والحقد والبغض والتنابذ والجشع والمكر والدهاء وغيرها من الشهوات السود التي تتعارض مع القيم الإنسانية».[٢٣] إن ما ورد في هذا المقطع يعطي صورة قاتمة عن الغرب ويضرب دلالات الثناء والمديح التي وردت سابقاً في إطار تاريخي مختلف. فهل الغرب في القرن الماضي ومنتصف هذا القرن هو غير الغرب في نهاية القرن العشرين؟ ربما. لكن كيف قلب المؤلفون الصورة بهذا الشكل وكأننا نرى «النيكاتيف» وليس الصورة المظهرة. والذي يبدو واضحاً هنا هو أن المؤلفين يستعملون حكمهم القيمي الخاص بهم أو ما يسمى Value judgement لينظروا إلى الغرب بهذا المنظار.

وبما أن البحث ليس في موقع الدفاع عن الغرب، ولا منحازاً لوجهة النظر هذه

---

(٢٠) أحمد أبو حاقة وآخرون، **المفيد في الأدب العربي**، بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٩٨، ص. ٩٧.
(٢١) المرجع السابق، ص. ٩٦.
(٢٢) المرجع السابق، ص. ٩٧.
(٢٣) المرجع السابق، ص. ٣٥٥ ـ ٣٥٦.

أو تلك، يبقى عليه، وللأمانة العلمية، أن يناقش ويفسر ويحلل العبارات ودلالاتها من كل جوانبها. وهذا ما يدفعنا للتساؤل: هل المجتمع أو المجتمعات الشرقية تخلو من هذه الصفات أو أكثرها؟ فهل هي مهددة بكارثة كبرى؟ فعندما يلتقي المثقفون عندنا، خصوصاً الذين درسوا في أوروبا وأمريكا، أو زاروا الغرب وعاشوا فيه فترة زمنية، نجدهم يتحدثون عن النظام، والنظافة، واحترام الإنسان وحتى الحيوان، والقضاء العادل الذي يحاكم حتى رؤساء الجمهوريات، والحرية بكل إبعادها و... فأية صورة هي الأقرب إلى الواقع والتي نحاول أن ننقلها إلى طلابنا؟ وهل أن قناعاتنا الشخصية هي غير ما نكتبه ليقرأه غيرنا بهدف إشباع تصوّر معيّن عند الجمهور الذي يقرأنا؟

وإذا بالصورة التي يحاول الكتاب نقلها إلى التلامذة هي سوداوية «ونحن نرى اليوم أركان المدنية الغربية تتقوض وتنهار كما تقوضت وانهارت أركان مدنيات سبقتها من قبل».[٢٤] مجدداً، أليس هذا حكم قيمي أو حكم مسبق؟ من أثبت أن المدنية الغربية تنهار. إن الأدبيات التي تعود إلى مطلع هذا القرن كانت تتضمن نفس الموقف تقريباً. لقد مضى قرن ولم تنهر هذه المدنية. إذ كيف تفسر تزاحم سكان العالم الثالث الذين يفعلون المستحيل للهجرة إلى الغرب والعيش فيه؟ يمكن القول بأن الصور التي تضمنها هذا الكتاب جاءت بغالبيتها كنتيجة لرؤية مسبقة preconception بنيت على أساسها أحكام واستخلصت استنتاجات تجاوزت الواقع بشكل جلي.

وفي مكان آخر نرى في قصيدة أحمد شوقي «نكبة دمشق» اشمئزازاً وثناءً معاً. إشمئزاز من ضرب دمشق بالطائرات والمدافع يقابله تذكير بشكل ثناء على الثورة الفرنسية وإنجازاتها في سبيل الإنسانية:

وحررت الشعوب على قناها فكيف على قناها تسترق؟

وتظهر هذه القصيدة ملامح الغربي الذي يعشق الحرب، ولا يستند في حكمه على الآخرين للمنطق، وهو قاس وبلا قلب. ثم يستدرك شوقي كي لا يعمم هذه الصفات بأن الأذية التي ألحقها القائد العسكري بدمشق قد ألحقها أيضاً بسمعة فرنسا.

وفي نص لقسطنطين زريق، يقارب مفهوم الحضارة الغربية بكثير من المنطق. فهو يرسم برزانة صورة الغرب الذي يؤمن بالعالم الطبيعي، وبالإنسان كقيمة،

(٢٤) المرجع السابق، ص. ٣٥٦.

وبالعقل وسيلة إلى الحقيقة.[٢٥] وهذه الأبعاد الثلاثة لصورة الغرب إيجابية في مضمونها وإيحاءاتها. إذا نظرنا إلى كل الصور التي عكستها النصوص والتحليلات في هذا الكتاب لتبين لنا أنها ثلاث فئات: الصورة الإيجابية التي حصلت على المديح والثناء؛ الصورة العقلانية التي حاولت أن تبين الغرب بأبعاده الإنسانية والحضارية؛ والصورة السلبية التي رأت في الغرب الصفات السيئة وبأنه في طريق الانهيار. والسؤال هنا: هل تشوّش هذه الصور الطالب اللبناني في نظرته للغرب، أم أنها تقدّم له خيارات يتبنى إحداها؟

صورة الغرب في كتب التاريخ المدرسية

تناولت هذه الدراسة ست سلاسل لكتب التاريخ بعضها اقتصر على المرحلة الإبتدائية وبعضها الآخر على المرحلة المتوسطة، أو الثانوية. كما أن بعضها يضم مرحلتين. وقد اعتبر معلمو هذه المادة أن هذه السلاسل هي الأكثر استعمالاً في المدارس الخاصة والعامة في الثمانينات والتسعينات، وهي:

- **التاريخ**، ثانٍ، ثالث، رابع، وخامس إبتدائي. بيروت: منشورات المركز التربوي للبحوث والإنماء.
- **التاريخ**، رابع وخامس إبتدائي؛ أول، ثانٍ، وثالث متوسط، بيروت: منشورات المركز الوطني للمعلومات والدراسات.
- جان حايك وآخرون، **التاريخ العلمي**، أول، ثانٍ، ثالث، ورابع متوسط.

  ووهيب أبو فاضل وآخرون، **التاريخ العلمي الحديث**، أول، ثانٍ، وثالث ثانوي. زوق مكايل: مكتبة حبيب.
- منير سلامة وآخرون، **الوافي في التاريخ**، أول، ثانٍ، ثالث، ورابع متوسط؛ أول، ثانٍ، ثالث، ورابع متوسط؛ أول، ثانٍ، وثالث ثانوي، بيروت: دار الفكر اللبناني.
- شفيق جحا وآخرون، **المصور في التاريخ**، أول، ثانٍ، ثالث، ورابع متوسط؛ أول، ثانٍ، وثالث ثانوي، بيروت: دار العلم للملايين.
- سمير الأتات، **المضيء في التاريخ**. رابع متوسط، أول ثانوي، وثالث ثانوي، بيروت: لا ناشر.

---

(٢٥) المرجع السابق، ص. ٣٦٦.

لقد اعتمدنا الطريقة ذاتها تقريباً التي اعتمدت في معالجة كتب القراءة العربية، مع بعض التعديل في بنية الجداول نظراً للاختلاف في طبيعة المادة ومحتواها بين القراءة والتاريخ، حيث استبدل عدد الصفحات ـ كما في جداول القراءة ـ بعدد الدروس، وزيدت أحياناً جداول لتظهر توزع الدروس على فترات زمنية ثلاث:

- الغرب قبل نشوء المسيحية.
- الغرب منذ المسيحية حتى عصر التنوير (القرن السابع عشر).
- الغرب منذ بداية القرن الثامن عشر حتى اليوم.

كذلك وضعت جداول بالعبارات ذات الدلالة في رسم صورة الغرب السياسي، والاقتصادي والاجتماعي.

سنتبع ـ دون أية مفاضلة ـ الترتيب نفسه لسلاسل الكتب الواردة أعلاه مبتدئين بتلك التي أصدرها المركز التربوي لنرى حجم المادة المخصص للغرب فقط، وحجم المادة المشترك بين الغرب والعرب، في كل كتاب وكل سلسلة.

جدول ٤:

حجم المادة عن الغرب في كتب التاريخ للمركز التربوي

الصف	توزيع الدروس					
	دروس الكتاب	الدروس عن الغرب	٪	الدروس المرتبطة بالغرب	٪	المجموع ٪
إبتدائي ثان	٤ فصول	–	–	–	–	–
إبتدائي ثالث	١٩	–	–	٦	٣١,٥٧	٣١,٥٧
إبتدائي رابع	٢٠	٢	١٠	٣	١٥	٢٥
إبتدائي خامس	٢٠	٤	٢٠	٨	٤٠	٦٠
المجموع	٦٢	٦	٩,٥٢	١٧	٢٦,٩٨	٣٦,٥

تضمنت هذه السلسلة المعتمدة في المدارس العامة اللبنانية نسبة أقل من ١٠٪ من محتواهاللغرب فقط، وزادت هذه النسبة عند دراسة تاريخ لبنان والعرب وارتباطه بالغرب لتصل إلى أكثر من ثلث المحتوى. وهذا دليل على إعطاء أهمية حتى

في المرحلة الابتدائية للتعرف على تاريخ الغرب وتأثيره علينا. ويلاحظ بأن كتاب الصف الثاني قد خلا من دروس عن الغرب لأن منهاج هذه السنة يدور حول حياة الإنسان القديم فقط، وهذا ما أثّر سلباً على مجموع النسبة الخاصة بالغرب.

وعند توزيع الدروس حسب الحقبة الزمنية، تبين أن خمسة دروس من أصل ٢٣ درساً هي عن فترة ما قبل الميلاد، وأربعة منذ المسيحية حتى عصر التنوير، و١٤ درساً منذ التنوير حتى ما بعد منتصف القرن العشرين. أي ٦٠,٨٦٪ من مجموع الدروس التي تدور حول الغرب. أما توزيع مواضيع الدروس والصورة التي تعطيها كتب هذه السلسلة، فقد تمّ تقسيمه إلى عناصر الصورة السياسية، والاقتصادية والاجتماعية للغرب كما يبين الجدول أدناه:

جدول ٥:
عناصر الصورة السياسية للغرب في سلسلة المركز التربوي

التعابير المستعملة	عناصر صورة الغرب				
	الحربي	الاستعماري	المخادع	الاستبدادي	الديموقراطي
تعابير الوصف المستعملة	قتال إنهزام خسارة تهديم (صور)	إحتلال إستعمار إنتداب	فشل في تقسيم الناس إحداث انشقاق	تشريد أهلها فرض ضرائب نهب	

لم تكن الصورة السياسية عن الغرب معبّرة في هذه السلسلة. ربما لأنها للمرحلة الابتدائية والهدف لا يتجاوز موضوع سرد القصص. ويظهر بأن السلسلة تعمدت استعمال تعابير حيادية في أكثرية نصوصها، ولا تحمل دلالات مؤثرة في صورة الغربي عندما كان يجب ذلك. إذ نقرأ عن تحدي مدينة صور للإسكندر الكبير، فلا ترد عبارات تصفه بالمعتدي، أو القاسي، أو الظالم... مع أن النص يشرح كيف

دمّر الاسكندر مدينة صور التي كانت من أجمل وأقوى المدن الفينيقية[٢٦]. وكأن الكتاب يساوي بين المعتدي والمعتدى عليه.

أما الصورة الاقتصادية ـ الاجتماعية فيشملها الجدول التالي:

جدول ٦:
عناصر الصورة الاقتصادية الاجتماعية للغرب
في سلسلة المركز التربوي

التعابير المستعملة	عناصر صورة الغرب				
	الاقتصادي		الاجتماعي		
	إنتاجي	إستغلالي	طبقي	ديني	ثقافي
تعابير الوصف المستعملة	بناء تشييد إزدهار	إحتكار فرض ضرائب كسب أرباح	طمع بالفلاحين	الصليبية الدافع الديني	إكتشاف إختراع إنجازات فن الرسم فن العمارة تزيين إقتباس تعلم

يبرز بعض الكتب النواحي الإيجابية على الصعيد الاقتصادي والثقافي للحكم الروماني للبنان: «شق الرومان الطرق ورصفوها بالحجارة وبنوا الجسور وجرّوا المياه في قنوات وشيدوا الهياكل والمنازل المزينة بالفسيفساء».[٢٧] أو «إزدهرت

(٢٦) أنظر الدرس السادس كتاب **التاريخ** منشورات المركز التربوي للبحوث والإنماء، بيروت، شركة الناشرين اللبنانيين لاتا.

(٢٧) المرجع السابق، ص. ٤٨.

الحياة الاقتصادية أيام البيزنطيين... وقدمت الحضارة البيزنطية للعالم فن العمارة والرسم والتصوير».[٢٨] وهذه الصورة الإيجابية ما تلبث أن تهتز عندما يتطرق الكتاب إلى احتكار البيزنطيين للحرير والأرجوان وفرض الضرائب الباهظة... أما بالنسبة للوضع الاجتماعي فالتركيز هو على الإنجازات العلمية والثقافية حيث تعدد الدروس بعض الاكتشافات والاختراعات إلى جانب الفنون التي اشتهر بها الفرنسيون. بينما تبقى طبقات المجتمع وشرائحه مغيّبة عن النصوص. مع إشارة إلى الدوافع الدينية في تاريخ أوروبا وعلاقته بالعرب.

وبالمقارنة مع الصورة التي ترسمها هذه الكتب للغرب الحديث، يبقى الغرب القديم (الرومان واليونان) أكثر إيجابية. فهذه الصورة تتشح بالسلبية مع الحروب الصليبية: الصليبيون معتدون بشكل عام، ثم تختلط عناصره. فمن جهة كان الصليبي متخلفاً عن العرب ومن جهة أخرى يحب الاقتباس والتعلم منهم.

أمّا الصورة الحديثة جداً والتي تستحق أن نتوقف عندها هي ما رسمه أحد النصوص بعنوان «خليل المسافر» حيث قصة شاب لبناني عانى الفقر والاضطهاد فسافر إلى بلاد غنية هي أميركا بعد أن رأى الكثيرين من أبناء وطنه يعودون محمّلين بالمال... واستطاع أخيراً أن يؤسس مصنعاً وتضاعفت أرباحه حتى أصبح من الأغنياء الكبار.[٢٩] بالرغم من أن أهداف القصة هي طموح اللبناني، وقدرته على الوصول إلى ما يبتغيه، لكنها تتضمن صورة سلبية عن حياة اللبناني المتسمة بالفقر والاضطهاد، بينما تظهر أميركا بالمقابل أرض الفرص والأحلام. لذلك لم يرد في النص أن خليلاً عاد إلى بلده «محملاً بالمال» كغيره، بل ربما فضل البقاء هناك، أو اختار الأفضل.

سلسلة كتب تاريخ أخرى، تحمل اسم التاريخ أيضاً للصفوف من الرابع الإبتدائي حتى الثالث المتوسط. لكنها كانت مستعملة في الثمانينات وبداية التسعينات في منطقة الجبل التي كانت تدار بواسطة «الإدارة المدنية». وقد رسمت هذه السلسلة صورة للغرب ولعلاقته مع الشرق أوضح بكثير من باقي السلاسل كما سيظهر من خلال الجداول والنصوص.

---

(٢٨) المرجع السابق، ص. ٥٣.

(٢٩) أنظر: المركز التربوي للبحوث والإنماء، التاريخ، السنة الثالثة الإبتدائية، بيروت، ١٩٩٨، ص. ٨٦ ـ ٨٧.

جدول ٧:
حجم المادة عن الغرب في كتب التاريخ للمركز الوطني للمعلومات

الصف	توزيع الدروس					
	دروس الكتاب	الدروس عن الغرب	٪	الدروس المرتبطة بالغرب	٪	المجموع ٪
إبتدائي رابع	١٩	١	٥,٢٦	٢	١٠,٥٢	١٥,٧٨
إبتدائي خامس	٢١	٢	٩,٥٢	٩	٤٢,٨٥	٥٢,٣٧
متوسط أول	٢٧	٦	٢٢,٢	-	-	٢٢,٢
متوسط ثانٍ	٢٢	٨	٣٦,٣٦	٥	٢٢,٧٢	٥٩,٠٨
متوسط ثالث	٣١	٨	٢٥,٨	١	٣,٢٢	٢٩,٠٢
المجموع	١٢٠	٢٥	٢١,٠٤	١٧	١٤,١٦	٣٥,٢

بالرغم من التفاوت النسبي بعدد الدروس الخاصة بالغرب مقارنة بتلك المشتركة بين الغرب والشرق، والتفاوت بين صف وآخر، تبقى النسبة لا بأس بها إذ تجاوزت ثلث حجم المادة مما يعني أن هناك اهتماماً واضحاً بتاريخ الغرب، خصوصاً وأن تاريخ منطقتنا قد تأثر سلباً وإيجاباً بما كان يحصل في الغرب، أو بين الغرب والشرق.

أمّا عن توزيع الدروس بالنسبة للفترات الزمنية، يوجد ثلاثة دروس من ٤٢ درساً عن الغرب ما قبل المسيحية؛ و١٣ درساً منذ المسيحية حتى عصر التنوير؛ و٢٦ درساً أو ٦١,٩٪ من مجموع الدروس عن الغرب منذ التنوير حتى بعد منتصف القرن العشرين. وهذه إشارة إلى اهتمام واضعي هذه الكتب بالجزء المعاصر من تاريخ أوروبا الذي أثر في مسار الأمور وتطورها في العالم العربي.

أما عناصر الصورة التي حملتها هذه الكتب عن الغرب، نستعرضها في الجدولين التاليين:

جدول ٨:
عناصر الصورة السياسية للغرب في كتب التاريخ للمركز الوطني للمعلومات

التعابير المستعملة	عناصر صورة الغرب				
	الحربي	الإستعماري	المخادع	الإستبدادي(*)	الديمقراطي(**)
	حصار	هيمنة	إدعاء	إرهاب	إخاء
	غزو	رغبة بالسيطرة	غدر	فرض	مساواة
تعابير	إحتلال	طمع	نكث	إجبار	حرية
الوصف	إعلان حرب	حكم عسكري	إخلال بالوعد	سخرة	تحرر
المستعملة	تمثيل بالسكان	إنتزاع الأرض	تخييب	نظام استبدادي	رفض الظلم
	إستيلاء	سياسة التقسيم	مماطلة	إضطهاد	رفض الطغيان
		نهب الخبرات	إستغلال	سلطة مطلقة	فصل السلطات
				تعنت	فصل الدين عن الدولة
				إبتزاز	

* وصف العلاقة داخل المجتمعات الغربية، وعلاقتها بالعرب أيضاً.
** وصف العلاقة داخل المجتمعات الغربية فقط.

إن الصورة السياسية الطاغية على الغرب والغربي صاحب القرار، أنه يخوض الحرب بدافع الطمع واستعمار الآخرين كما يستشف من دلالات التعابير المستعملة في العامودين الأولين، كما نرى تركيزاً على صفة الغربي، خصوصاً القائد العسكري أو الحاكم السياسي (وليس المواطن العادي) المتسمة بالنفاق عند استعمال أوصاف مثل: غدر، ونكث أو أخل بالوعد، أو خيّب آمال العرب،... وبذلك يكذب الغربي لأنه انتهازي يريد أن يستغل الفرص ثم يدير ظهره لمن عاهده على مساندته. وأحياناً

تأتي الصورة سلبية بمجملها وفي مقطع واحد كما ورد في درس عن العراق«بثّت بريطانيا بذور التفرقة الدينية والمذهبية بين السكان، وأجبرت العراقيين على القيام بأعمال السخرة وفرضت عليهم ضرائب باهظة».[٣٠] تتكرر هذه الصورة السلبية في أكثر أجزاء السلسلة وأغلب الدروس التي تتناول علاقة العرب بالغرب مثلاً: «انتهت الدولة العربية ١٩٢٠ نتيجة لغدر بريطانيا وفرنسا بالعرب».[٣١] أو «حاصر الصليبيون أنطاكيا واحتلوها وأعملوا في أهلها القتل والسبي... واحتلوا معرة النعمان وفتكوا بأهلها».[٣٢] لكن الصورة المقبولة تظهر أحياناً عند الحديث عن الثورات الداخلية في أوروبا بهدف نيل الشعب حقوقه وتخلصه من ظلم حكامه. أما صورة الغرب الاقتصادية ـ الاجتماعية فنستخلصها من الجدول رقم ٩:

إن التعابير الواردة في وصف الحالة الاقتصادية وتحليلها تبين بأن الغرب يهتم بالإنتاج في وطنه، بينما يعتمد الإهمال في البلاد التي يسيطر عليها. والأسوأ أنه لا يكتفي بذلك بل يلجأ إلى نهب الموارد والمواد الأولية، ويجبر الناس على السخرة، ويلجأ إلى كل الطرق الملتوية ليحقق أرباحاً. وهذا الأمر لا يقتصر على الغربي في تعامله مع الآخرين، بل أيضاً في معاملته مع أبناء وطنه. وهذا ما تبيّنه العلاقة الاقتصادية ـ الاجتماعية حيث الإقطاعي يستغل الفلاح، والرأسمالي يستغل العالم ويعتمد على تشغيل النساء والأطفال براتب منخفض، وقد ورد في أحد الكتب: «العمال هم المنتجون الحقيقيون الذين لا يملكون سوى عملهم يبعونه في المصانع في ظروف صحية سيئة مقابل أجور متدنية».[٣٣] ولا يفوت كتب هذه السلسلة أن تربط بين التطور الاقتصادي وبنشوء الحركات الاشتراكية التي ركّزت على إنصاف العمال وتحقيق العدالة الاجتماعية. وإذا نظرنا إلى الصور التي تصاحب النصوص، لوجدناها مرتبطة بمحتوى النص. ففي صورة لعائلة عمالية، نجد الأب والأم مع ستة أولاد،

(٣٠) المركز الوطني للمعلومات والدراسات، **التاريخ**، السنة الخامسة الإبتدائية، بيروت: الدار التقدمية للنشر، ١٩٨٦، ص. ٧٧.

(٣١) المرجع السابق، ص. ٥٥.

(٣٢) المركز الوطني للمعلومات والدراسات، **التاريخ**، السنة الثانية المتوسطة، بيروت: الدار التقدمية للنشر، ١٩٩٠، ص. ٤٨.

(٣٣) المركز الوطني للمعلومات والدراسات، **التاريخ**، السنة الثالثة المتوسطة، بيروت: الدار التقدمية للنشر، ١٩٩٢، ص. ٣٣١.

جدول ٩:
عناصر الصورة الاقتصادية ـ الاجتماعية للغرب في سلسلة المركز الوطني

التعابير المستعملة	عناصر صورة الغرب					
	الاقتصادي		الاجتماعي			
	إنتاجي	إستغلالي	الطبقي	الديني	الثقافي	الجندري
تعابير الوصف المستعملة	تشجيع الصناعة	إجبار العمال	طبقات متمايزة	الصليبية	تقدم علمي	الملك
	تشجيع الزراعة	أعمال سخرة	تتمتع بامتيازات	ضغط رجال	تقدم تقني	القائد
	(في الغرب)	إحتكار	حرمان العامة	الكنيسة	إختراعات	العامل
		مصادرة أملاك	طبقة الرأسماليين	التبشير	اكتشافات	المواطن
	إهمال الزراعة	التجارة بالزنوج	طبقة العمال	إضطهادات	فنون	الملكة
	إهمال الصناعة	نهب الموارد	علاقات إنتاجية	بيع صكوك الغفران	إنبعاث فكري	المرأة المستغلة
	(في الشرق)	إزدياد الضرائب		الكنيسة والإقطاع	إعتماد حكم العقل	
		تحقيق أرباح				
		تشغيل الأطفال				
		إستغلال الرأسماليين				

لكن لا فرح على وجوههم حيث يسكنون في غرفة متواضعة.(٣٤)

إن الدلالات السلبية التي نستنتجها من التعابير الوصفية لعناصر الحياة الاجتماعية في الغرب تطغى على ما عداها في العلاقات الاجتماعية: طبقات تستغل بعضها، حرمان عامة الناس من حقوقهم، تشغيل النساء والأطفال، طبقات تتمتع بامتيازات على حساب طبقات أخرى... وبالنسبة للعنصر الديني في رؤية هذه السلسلة للغرب، تظهر الصورة سلبية أيضاً. فالكنيسة ورجال الدين يمارسون الكثير من التصرفات غير المقبولة أخلاقياً ويتدخلون بالأمور السياسية لمصلحتهم، وليس كانعكاس للتعاليم والمبادىء المسيحية. فرجال الدين يبيعون صكوك الغفران، ويدعمون الإقطاع، ويشاركون في الاضطهادات الدينية،... ثم تنعكس الصورة نحو الإيجابية عند التطرق إلى العنصر الثقافي في الحياة الغربية. فإذا بأعمال الفنانين والمختر عين والمكتشفين يحكى عنها بطريقة إيجابية مع إظهار كيف أن الغربي يعتمد على حكم العقل: «ساعدت الاكتشافات الجغرافية على الإنبعاث الفكري الأوروبي المعتمد على سلطة العقل وقدرته على التمييز والتجديد والاكتشاف».(٣٥) أمّا عن وضع المرأة بالنسبة للرجل، أو ما يسمى «الجندر»، فإن كتب هذه السلسلة لا تبرز دور المرأة إلا بشكل عارض، بينما التركيز هو على الرجل وأعماله وإنجازاته وحتى مساوئه.

إن عناصر صورة الغرب والغربي التي وردت في هذه السلسلة تطغى عليها السلبية في الناحية السياسية والاقتصادية والاجتماعية. فالغربي طامع دائماً يهوى الاستعمار واستغلال الآخرين حتى أخذ هذا المنحى طابعاً مؤسساتياً. أي أن كل فئات المجتمع مشاركة به من حكومة وجيش وكنيسة ومؤسسات علمية كما ورد في أحد الدروس «وجد البابوات في الاكتشافات الجغرافية مجالاً لنشر عقيدتهم الدينية فمنحوا الملوك حق امتلاك الأراضي المكتشفة، وشجعوا الرهبان على مرافقة الرحّالة للتبشير بدينهم بين شعوبها».(٣٦) كذلك تبرز السلسلة صورة عداء الغرب المسيحي للشرق المسلم وكأنها من المسلمات. وتأخذ غالباً صفة انحرافية أي تصوير المعتدى عليه وكأنه معتدٍ: «وجّه الأمبراطور البيزنطي دعوة إلى البابا لمدّه بالمعونة

(٣٤) المرجع السابق، ص. ٢٣٢.
(٣٥) **التاريخ**، الثانية المتوسطة، ص. ١٢٤.
(٣٦) المرجع السابق، ص. ١١٢.

العسكرية ضد جيرانه المسلمين من السلاجقة الأتراك».[٣٧] إن الحديث التاريخي في سياق الدرس هو أن السلاجقة بدأوا بمهاجمة الدولة البيزنطية، وإذا بالأمبراطور يريد دعماً ضد «جيرانه»، أي لم يراع حرمة الجيرة.

كذلك يمكن القول من ناحية ثانية، بأن هذه السلسلة قد أعطت الوضع الاقتصادي والاجتماعي حيّزاً لا بأس به في معالجتها لقضايا الغرب مركزة على معاناة الفقراء والعمال في ظل نظام رأسمالي حيث تصبح القيم الانسانية مهمشة لصالح الكسب المادي.

السلسلة الثالثة التي تناولتها هذه الدراسة هي **التاريخ العلمي** بجزءيها المتوسط والثانوي. وقد شغل الغرب فيها المساحة التالية:

جدول ١٠:

حجم المادة عن الغرب في سلسلة التاريخ العلمي

الصف	توزيع الدروس					
	دروس الكتاب	الدروس عن الغرب	٪	الدروس المرتبطة بالغرب	٪	المجموع ٪
متوسط أول	٣٢	٩	٢٨,١٢	٢	٦,٢٥	٣٤,٣٧
متوسط ثانٍ	٢٨	١٠	٣٥,٧١	٥	١٧,٨٥	٥٣,٥٦
متوسط ثالث	٣٤	٩	٢٦,٤٧	٤	١١,٧٦	٣٨,٢٣
متوسط رابع	٣٠	٢	٦,٦٦	١٨	٦٠	٦٦,٦٦
ثانوي أول	١١ (قسماً)	٤	٣٦,٣٦	-	-	٣٦,٣٦
ثانوي ثانٍ	٣٤	٢٧	٧٩,٤١	٦	١٧,٦٤	٩٧,٠٥
ثانوي ثالث	٣٢	٦	١٨,٧٥	٢٠	٦,٢٥	٨١,٢٥
المجموع	٢٠١	٦٧	٣٣,٣٣	٥٥	٢٧,٣٦	٦٠,٦٩

إن ثلث محتوى كتب هذه السلسلة مخصص للغرب فقط (٣٣,٣٣٪)، وأدنى من

(٣٧) المرجع السابق، ص. ٤٣.

الثلثين بقليل للغرب ولقضايا مرتبطة به. وهذا يعني بأن التلميذ سيدرس درسين عن الغرب مقابل درس واحد لا صلة له بالغرب، وهذه نسبة عالية تظهر مجدداً، وبشكل أقوى، الاهتمام الذي توليه المناهج والمدارس والمؤلفون لتاريخ الغرب. وقد توزعت الدروس على الفترات الزمنية كالتالي:

- ستة دروس من أصل ١٢٢ درساً هي لتاريخ أوروبا قبل المسيح.
- ستة وعشرون درساً للغرب منذ المسيحية حتى عصر التنوير.
- وتسعون درساً (٧٣,٧٧٪) منذ بداية القرن الثامن عشر حتى الآن.

يظهر الاهتمام بالنسبة للتاريخ الغربي في الحقبة المعاصرة حيث ثلاثة أرباع الدروس تقريباً من تلك التي تعالج أوضاع الغرب وعلاقته بالشرق في القرون الثلاثة الأخيرة. وربما هذه الفترة قد عرفت علاقة نوعية بين الغرب والشرق تمثلت غالباً باحتلال الغرب لأجزاء من البلدان العربية وبالتدخل المباشر في شؤون العرب.

لكن ما هي الصورة السياسية التي تقدمها هذه السلسلة للتلامذة؟ وما هي تلك الاقتصادية والاجتماعية؟

جدول ١١:

عناصر الصورة السياسية للغرب في سلسلة التاريخ العلمي

التعابير المستعملة	عناصر صورة الغرب				
	الحربي	الاستعماري	المخادع	الإستبدادي	الديموقراطي
	إرسال جيش سيطرة	مطامع تقسيم الشرق	كذب تناقض	تعاظم سلطة إجبار الفلاحين	حرية مساواة
تعابير الوصف المستعملة		أمبراطورية	خذل	إعلان الأحكام العرفية	محاربة الاستعمار
		إستعمارية	إستغلال		حق تقرير المصير
			إنكار للحق رغم الوعود	معاملة بقسوة خطف دون شفقة	

إن الأسلوب والتعابير المتبعة في هذه السلسلة أقل سلبية بالنسب للغرب من غيرها. ففي باب العنصر الحربي والاستعماري، نجد أن الأوصاف التي استعملت محدودة جداً وغير قاسية كما في سلاسل أخرى. فعند الحديث عن الحملات الصليبية، توصف بأنها «نوع من الحج المسلّح لاستعادة قبر المسيح... بقيادة أحد ممثلي البابا».(٣٨) أو عند تناول السيطرة الاستعمارية في العالم، يرد في النص: «حكم البريطانيون ممتلكاتهم بطريقة غير مباشرة، مشركين الوطنيين بالحكم، وكان همهم الأساسي تحقيق هدفهم من الاستعمار أي تأمين المواد الأولية والأسواق».(٣٩) يستشف القارىء من وصف الإستعمار بأنه مشروع اقتصادي مربح أكثر مما هو مشروع متكامل ينفذ على حساب أهل الأرض إن كان من الناحية السياسية أو الاقتصادية أو الثقافية... ولكن طريقة معالجة المواضيع السياسية بقيت ضمن المنطق السياسي إجمالاً. ففي وصف الاستعمار اعتبر أنه «مرحلة إنتقالية للمستعمرات».(٤٠) وهو بالنسبة للقانون الدولي أو لهيئة الأمم مرحلة إنتقالية وليس استعماراً كما صورته الكتب أو كما وصفه بعض السياسيين. وقد «أدى هذا الانتداب للبنانيين خدمات عدة. فقد أعاد للبلاد ما سلخه نظام المتصرفية، ووضع أسس الدولة الحديثة وأنظمتها، وباشر ببنائها الاقتصادي والاجتماعي.(٤١) وتطرق المؤلفون إلى قضية إلقاء قنبلتين نوويتين على اليابان بشكل حيادي، ودون الإشارة إلى أذية المدنيين واستعمال سلاح فتّاك لا يقبل به العقل الإنساني.(٤٢) كذلك يستنتج القارىء الصورة الإيجابية المحبة للسلام للرئيسين الأميركيين ولسون وجون كينيدي.(٤٣)

---

(٣٨) جان حايك وآخرون، **التاريخ العلمي**، السنة المتوسطة الثانية، زوق مكايل: مكتبة حبيب، ١٩٩٤، ص. ٥٠.

(٣٩) جان حايك وآخرون، **التاريخ العلمي**، السنة المتوسطة الثالثة، زوق مكايل: مكتبة حبيب، ١٩٩١، ص. ١٦٧.

(٤٠) جان حايك وآخرون، **التاريخ العلمي**، السنة المتوسطة الرابعة، زوق مكايل: مكتبة حبيب، ١٩٩٦، ص. ٢٨.

(٤١) وهيب أبو فاضل وآخرون، **التاريخ العلمي الحديث، لبنان والعالم**، زوق مكايل: مكتبة حبيب، ١٩٩٥، ص. ١١٤.

(٤٢) أنظر: وهيب أبو فاضل وآخرون، **التاريخ العلمي الحديث، أحداث العالم المعاصر**، زوق مكايل: مكتبة حبيب، ١٩٩٥، ص. ٢١٥ ـ ٢١٦.

(٤٣) المرجع السابق، ص. ١١ ـ ١٢ و٢٧٧ ـ ٢٧٨.

لكن إعطاء صفة سيئة للغربي، تردد في أكثر من مكان، وبأكثر من تعبير «كذب، تناقض، خذل، إستغلال، رغم الوعود.. نرى الناحية السلبية قد بدأت تقوى لتظهر أوضح عند التعامل مع الغربي كاستبدادي، خصوصاً عند تناول تاريخ القرون الماضية. فالحاكم استبدادي على شعبه، وكذلك على الآخرين عندما يستطيع ذلك. أمّا في باب الديمقراطية، فهناك ثناء على الثورة الفرنسية التي مهّدت طريق الحرية والمساواة إذ «أصبحت الثورة الفرنسية مثالاً يحتذى وانتشرت مبادىء الحرية والمساواة وبرزت فكرة الانتماء إلى الوطن والتراث واللغة والدين... فسعت الشعوب الأوروبية بالتشبّه بالفرنسيين».(٤٤) وإذا بهذه الظاهرة تنتقل إلى خارج الغرب بواسطة الأميركيين مع مبادىء ولسون التي نادت بمحاربة الاستعمار وبحق تقرير المصير. فالغربي الذي ظهر في بعض الحالات استعمارياً، أو مخادعاً، أو استبدادياً عاد وحسن صورته باستعداده لإنهاء استعمار الآخرين، وجعلهم يقررون مصيرهم، حتى ولو لم ينفّذ هذا الأمر. أمّا الصورة التي تعطيها هذه الكتب عن الوجه الاقتصادي ـ الاجتماعي للغرب أكان ضمن المجتمعات الغربية أو في تعامله مع المجتمعات العربية، فنجد عناصرها في الجدول رقم ١٢.

إن الصورة الاقتصادية التي تعكسها الكتب، وبشكل خاص التعابير الوصفية المستعملة تعطي انطباعاً حسناً عن الغرب. فهناك الإنتاج الصناعي، وتدفق الثروات، والمشاريع العمرانية ونوعية العمل الحسنة. لكن الوجه الآخر الذي ترسمه الكتب هو وجود استغلال في كل حقبة تاريخية، ومع كل نوعية نشاط إقتصادي. ففي النظام الإقطاعي يجبر الفلاح على العمل، ودفع الضرائب. وأثناء الثورة الصناعية عانت طبقة العمال من ضغط الرأسماليين، وكذلك خرج الغربي من بلاده ليحتل بلاداً أخرى من أجل تأمين المواد الأولية، والأسواق.

وتنعكس التغيرات الاقتصادية على الحياة الاجتماعية، «مع تدفق الثروات إلى أوروبا والتغير السريع لمستوى الحياة فيها، حصل انقلاب في مفهوم الحياة لدى الإنسان الأوروبي، فبعد أن كان همه التدين والسعي إلى آخرة صالحة، أخذ بصخب الحياة وبهرجاتها».(٤٥)

بينما نرى المجتمع الأوروبي والأميركي تسيطر عليه التقسيمات الطبقية في ظل

(٤٤) الحايك، **التاريخ العلمي**، ثالث متوسط، ص. ١٥٠.
(٤٥) الحايك، **التاريخ العلمي**، ثانٍ متوسط، ص ١٣٩.

جدول ١٢:
عناصر الصورة الاقتصادية ـ الاجتماعية للغرب
في سلسلة التاريخ العلمي

التعابير المستعملة	عناصر صورة الغرب					
	الاقتصادي		الاجتماعي			
	إنتاجي	إستغلالي	الطبقي	الديني	الثقافي	الجندري
تعابير الوصف المستعملة	إنتاج صناعي تدفق ثروات مشاريع عمرانية العمل بنشاط الثورة الصناعية	اجبار الفلاحين فرض ضرائب تأمين مواد أولية حاجة للأسواق لا ضمانات	نظام إقطاعي تراتبية في العلاقات أسياد وشعب رأسمالي وعمال ضعفاء وأقوياء	نشرالثقافة والتعليم نشر الدين حروب دينية إصلاح ديني أحقاد	نهضة علمانيين الفكر الواضح فنون ورسم نوابغ الشعر إنجازات مدينة إشعاع	دور بارز للمرأة سلطة الأب معاناة المرأة من الحرب

النظامين الإقطاعي والصناعي، حيث يظهر الاستغلالي في الطبقات العليا والمستغل في الطبقات الدنيا.

أما العنصر الديني فيلعب دوراً أكثر إيجابية بالرغم من وجود سلبيات عديدة. فرجال الدين ينشرون الثقافة والعلم، ويبشرون بالدين للبلدان المكتشفة والمستعمرة. بينما تتمثل صورتهم السلبية أو صورة أوروبا الدينية السلبية في الأحقاد بين الكاثوليك والبروتستانت حيث قادت إلى حروب بشعة. هنا تسقط مرحلياً

سمة التسامح الديني المتوقع من معتنقي الديانة المسيحية تحل محلها صفة الاضطهاد والقتل.

العنصر الاجتماعي الآخر الذي تناولته الكتب بإيجابية واضحة لا تخلو من الثناء والإعجاب هو العنصر الثقافي. فالنهضة في أوروبا تتخطى الحدود وتقود إلى اكتشافات وثورة علمية تجلّت بالاختراعات والفنون والآداب، وإذا ببعض المدن الأوروبية تصبح مراكز إشعاع فكري. فالغربي هو المكتشف، والمخترع، والمفكر، والفنان، والشاعر والفيلسوف. ومما يزيد من الانطباع الإيجابي والمجلل بالإعجاب والاحترام هي صور هؤلاء ذوي النظرات الثاقبة، واللحى البيضاء، والوجوه الناصعة. فالقارىء لا ينظر إلى مجرد رسم لإنسان، بل ينظر إلى عيني عبقري.

وفي تناولها لبعض أوجه العلاقات الإجتماعية المستندة إلى الجندر، لا تظهر المرأة الغربية بالصورة الحقيقية لها. إذ أن أخبار الحكام والمفكرين الذكور هي الطاغية، بالرغم من إيراد بعض الكتب تعبير «كان هناك دوربارز للمرأة»، تعود وتنقل القارىء إلى الإحساس بالشفقة عليها من خلال معاناتها من الحروب التي خاضها الأوروبيون والأميركيون في الحربين العالميتين.

نرى بشكل عام، أن صورة الغربي والغرب في هذه السلسلة، لم تكن سلبية بالمطلق حتى في أدق مراحل العلاقات بين الغرب والشرق. فالبرغم من وجود الغربي عندنا، إلا أنه لم يستغلنا أثناء فترة الانتداب مثلاً، بل كان له إنجازات ربما عجزنا عنها لو تركنا لوحدنا. كذلك من تابع تطور الغرب عند الفترات الزمنية يكتشف أنها دائمة التحسن من مرحلة لأخرى. إذ بالرغم من وجود الأخطاء، هناك دائماً من يأتي ليصلّح ويحسّن الوضع. وهذه صفة الغربي (كما تعكسها الكتب بشكل لا مباشر) الذي لديه دائماً أمل بأن الخطأ لن يستمر، بل ستأتي لحظة ويصلح فيها.

السلسلة الرابعة التي تناولتها الدراسة هي **الوافي بالتاريخ** المستعملة في المرحلتين المتوسطة والثانوية. وقد تضمنت نسبة لا بأس بها من الدروس التي تضمها الكتب عن الغرب كما يبين الجدول التالي:

جدول ١٣:
حجم المادة عن الغرب في سلسلة الوافي بالتاريخ

الصف	توزيع الدروس					
	دروس الكتاب	الدروس عن الغرب	٪	الدروس المرتبطة بالغرب	٪	المجموع ٪
متوسط أول	٣٢	٩	٢٨,١٢	٣	٩,٣٧	٣٧,٤٩
متوسط ثانٍ	٢٨	١٢	٤٢,٨٥	٤	١٤,٢٨	٥٧,١٣
متوسط ثالث	٣٤	٩	٢٦,٤٧	١٠	٢٩,٤١	٥٥,٨٨
متوسط رابع	٢٥	٢	٨	١٦	٦٤	٧٢
ثانوي أول	٣٩	١٢	٣٠,٧٦	-	-	٣٠,٧٦
ثانوي ثانٍ	٤٣	٣٤	٧٩,٠٦	٧	١٦,٢٧	٩٥,٣٣
ثانوي ثالث	٤٠	٩	٢٢,٥	٢٥	٦٢,٥	٨٥
المجموع	٢١٤	٨٧	٣٦,٠٩	٦٥	٢٦,٩٧	٦٣,٠٦

نسبة كبيرة من عدد الدروس التي تضمها كتب هذه السلسلة تدور حول الغرب، إما مباشرة، وقد تجاوزت الثلث (٣٦,٠٩٪) أو عن علاقته بالعرب والتي زادت أيضاً عن الربع (٢٦,٩٧٪). وهذا يعكس مجدداً المساحة التي أعطتها المناهج للغرب من جهة، ولاهتمام المؤلفين اللبنانيين بتاريخ الغرب من جهة ثانية. لكن إذا عدنا ووزعنا هذه الدروس بعد وضعها في مجموعة واحدة (أي التي تحدثت عن الغرب فقط، وتلك التي شملت الغرب والشرق) على الفترات الزمنية الثلاث التي اعتمدناها في البحث لظهرت الصورة بشكل أفضل كما في الجدول ١٤.

إذا نظرنا إلى هذا الجدول، خصوصاً القسم الأخير، يظهر لنا بأن نسبة الدروس المخصصة لتاريخ الغرب القديم هي الأقل مقارنة بفترة تاريخ الغرب منذ المسيحية حتى التنوير حيث يسيطر موضوعان على المحتوى: الحروب الصليبية وعصر النهضة. لكن حصة الأسد تبقى للغرب منذ القرن السابع عشر حتى الآن حيث عرف العالم أحداثاً تاريخية مؤثرة من جهة، وحيث أن تاريخ العرب المعاصر قد تأثر مباشرة بالغرب الذي تدخل في شؤون منطقتنا واستعمل قسماً هاماً منها. وهذا يظهر

سبب اهتمام المناهج والكتب بتاريخ الغرب المعاصر.

جدول ١٤:

توزيع الدروس حول الغرب حسب الفترات التاريخية

الصف	توزيع الدروس							
	عدد الدروس	ما قبل المسيحية	٪	منذ المسيحية حتى التنوير	٪	منذ التنوير حتى الآن	٪	المجموع
متوسط أول	١٢	٥	٤١,٦٦	٧	٥٨,٣٣	-	-	١٠٠
متوسط ثانٍ	١٦	-	-	١٦	١٠٠	-	-	١٠٠
متوسط ثالث	١٩	-	-	١	٥,٣٦	١٨	٩٤,٧٣	١٠٠
متوسط رابع	١٨	-	-	-	-	١٨	١٠٠	١٠٠
ثانوي أول	١٢	٩	٧٥	٣	٢٥	-	-	١٠٠
ثانوي ثان	٤١	-	-	-	-	٤١	١٠٠	١٠٠
ثانوي ثالث	٣٤	-	-	-	-	٣٤	١٠٠	١٠٠
المجموع	١٥٢	١٤	٩,٢١	٢٧	١٧,٧٦	١١١	٧٣,٠٢	١٠٠

والانتقال من الأعداد، إلى الكلمات ذات الدلالات أيضاً، هو لاستعراض وتحليل عناصر الصورة عن هذا الغرب مبتدئين بعناصر الصورة السياسية.

إن دلالات التعابير المستعملة في وصف الغرب السياسي (أنظر الجدول رقم ١٥) تظهره محارباً ومحتلاً، فحروب الاسترداد كانت لاستعادة الأندلس من أيدي العرب والاحتلال وإخضاع الثائرين عندما يتعامل مع شعوب أخرى. فهو يفرض سيطرته، ويجزىء البلد ويثير النعرات ليستمر في السيطرة. وفوق كل هذا، يصبح مخادعاً عند الضرورة إذ لا يلتزم بوعود قطعها، يماطل، ويتنكر لأصدقائه، حيث يُستشف بأنه أناني وانتهازي، ويستعمل كل الوسائل للوصول إلى غاياته. وهذا الغربي السياسي المستبد، هو مستبد إجمالاً في بلده، خصوصاً في فترة ما قبل انتصار الديموقراطية في المجتمعات الغربية. فالعبارات المستعملة هي ذات دلالات سلبية بشكل عام، باستثناء تلك المتعلقة بالديمقراطية التي طبقت مبادئها على فئات من المجتمع كما في أميركا إذ كانت «الحرية والمساواة للبيض فقط».

جدول ١٥:
عناصر الصورة السياسية للغرب في سلسلة الوافي بالتاريخ

التعابير المستعملة	عناصر صورة الغرب				
	الحربي	الإستعماري	المخادع	الإستبدادي(*)	الديمقراطي(**)
	حروب	أطماع	إشعال فتنة	الحق الإلهي	حرية
	استرداد				
	تطويق	توسع النفوذ	تذرع	سلطة إستبدادية	مساواة
تعابير الوصف المستعملة	صراع	أحلام السيطرة	إستبعاد	ضغط على الآخرين	إصلاح الأنظمة السياسية
	غزوات	إثارة النعرات	عدم التزام		
	إحتلال	تجزيء البلد	التنكر للعرب	فرض أحكام عرفية	
	إخضاع الثائرين	فرض السيطرة	تجاهل الوعود		
	زحف		مماطلة	إنتقام وتشفي	
				عقاب صارم	
				خنق الحريات	

وإذا عدنا إلى النصوص، نجد بعض الكتب تعطي صوراً متناقضة. فعند تناول فترة الانتداب يورد الكتاب «أن سياسة الانتداب في حقلي المالية والاقتصاد هي تبذير أموال الدولة وتخريب اقتصاديات البلاد».(٤٦) وبعد بضع صفحات يعدد الكتاب الإنجازات التي قام بها الانتداب إدارياً وأمنياً واقتصادياً وفي حقلي القوانين

(٤٦) منير سلامة وآخرون، **الوافي بالتاريخ**، الجزء السابع، بيروت: دار الفكر اللبناني، ١٩٩٦، ص. ٤٨.

والأشغال.[٤٧] ويتبع ذلك: «وجد غورو الاضطرابات منتشرة في مختلف المناطق، فعالجها بالشدة دون أن يمس المشاعر العامة.. اهتم بالإدارة وحاول القضاء على الرشوة والفساد.»[٤٨]إن رسم هكذا صورة للحاكم الفرنسي نفتقر إليها في شخصيات تاريخنا الوطني. فهذا أجنبي حاول أن يهدىء الاضطرابات دون أن يمسَ بمشاعر الناس، ويحارب الرشوة والفساد. وها نحن بعد ثمانين سنة من مجيء غورو نحاول أن نصل إلى هذه الحالة من الأمن، ونحلم بالقضاء على الرشوة والفساد في مؤسسات الدولة. لذلك يمكننا القول بأن هناك صورة مسبقة لهذا «الغرب السيّئ» يجب أن تظهر في شكل ما وفي مكان ما في النصوص التاريخية.

أما الصورة الاقتصادية ـ الاجتماعية في هذه السلسلة فلا تختلف كثيراً عما كانت عليه في السلاسل السابقة، حيث يظهر المجتمع الغربي مجتمعاً دينامياً يغيّر ويطور وسائل إنتاجه، والناس تعمل بجهد حتى ولو كانت مجبرة على ذلك حيث يمتزج طابع الاستغلال بالانتاج. ولكن هذا الأوروبي يأخذ جيوشه إلى بلاد أخرى يحتلها ويستثمر خيراتها. وعندما يغتني هؤلاء المستوطنون يشترون العبيد للعمل عندهم.

وفي الحقل الاجتماعي، هناك طبقات تستغل بعضها، وانتفاضات وثورات يقوم بها الفلاحون والعمال. فهذا العنصر الضعيف في المجتمع عنده وعي، وطاقة، وهدف يحاول تحقيقه عندما ينتفض ضد الظلم ويثور على الطغيان. ولكن التناقض عند الغرب يعود ويظهر عندما يحتل بلاد الغير ويتحكم بمصير شعوبها. فما يطلبه لنفسه يضنّ به على الآخرين. والعنصر الديني في الصورة الاجتماعية يحمل الوجهين السلبي والإيجابي. هناك صراع، وتسلط من جانب الكنيسة أحياناً. وانتهازية دينية في التعامل مع غير المسيحيين، إذ «رفض فخر الدين عرضاً إسبانياً باعتناق المسيحية لقاء توليته ولاية أكثر اتساعاً من إمارته.»[٤٩] والوجه الإيجابي للنشاط الديني هو في رعاية الكنيسة للمرضى والعجزة. وتنظيم الزواج والطلاق، وغيرها من الأمور الاجتماعية.

ولا تخفي الكتب الصورة الجيدة للعنصر الثقافي في الغرب إن كان في فترة ما قبل الميلاد أو منذ بدء عصر النهضة حيث فن العمران والرسم وعلوم الفلك والطب

(٤٧) المرجع السابق، ص. ٥٦ ـ ٥٧.
(٤٨) المرجع السابق، ص. ٦١.
(٤٩) فيصل شرارة وآخرون، **الوافي بالتاريخ**، الجزء الثالث، بيروت: دار الفكر اللبناني، ١٩٩٥، ص. ٣٩.

والاكتشافات... بينما لا نجد صورة واضحة عن المرأة الأوروبية إلا بشكل عابر وغير مركّز على نشاطاتها أو إنجازاتها، بينما الرجل هو صانع الحدث دائماً.

والسلسلة الخامسة التي اعتمدتها الدراسة هي **المصوّر في التاريخ** للمرحلتين المتوسطة والثانوية، وكان للغرب وللقضايا المشتركة بينه وبين العرب المساحة الظاهرة في هذا الجدول:

جدول ١٦:

حجم المادة عن الغرب في سلسلة المصور في التاريخ

الصف	توزيع الدروس					
	دروس الكتاب	الدروس عن الغرب	٪	الدروس المرتبطة بالغرب	٪	المجموع ٪
متوسط أول	٣٤	٩	٢٦,٤٧	٣	٨,٨٢	٣٥,٢٩
متوسط ثانٍ	٢٨	١٢	٤٢,٨٥	٤	١٤,٢٨	٥٧,١٣
متوسط ثالث	٣٤	٩	٢٦,٤٧	٦	١٧,٦٤	٤٤,١١
متوسط رابع	٣٠	٢	٦,٦٦	١٩	٦٣,٣٤	٧٠
ثانوي أول	٤٣	١٢	٢٧,٩٠	١	٢,٣٢	٣٠,٢٢
ثانوي ثانٍ	٣٨	٩	٢٣,٦٨	٢٤	٦٣,١٥	٨٦,٨٣
ثانوي ثالث	٤١	٣١	٦٣,١٥	٣	٧,٣١	٧٠,٤٦
المجموع	٢٤٨	٨٤	٣٣,٨٧	٦٠	٢٤,١٩	٥٨,٠٦

بالرغم من إعطاء الغرب حصة لا بأس بها في كتب هذه السلسلة إلا أنها أقل من تلك التي تضمنتها السلسلتان السابقتان لمرحلتي المتوسط والثانوي. أما عناصر الصورة السياسية التي حملتها فيمكن دراستها من خلال الجدول التالي:

جدول ١٧:
عناصر الصورة السياسية للغرب في سلسلة
المصوّر في التاريخ

التعابير المستعملة	عناصر صورة الغرب				
	الحربي	الاستعماري	المخادع	الاستبدادي	الديموقراطي
	تنافس	كسب المستعمرات	تذرّع	سجن الأبرياء	ديموقراطية
	قتال	مطامع	إستغلال طيبة	حرمان	إرادة الشعب
تعابير الوصف المستعملة	الانتصار بأي ثمن	قوى الطغيان	الشعب	إرهاق بالضرائب	حرية
		تحيز مطلق	مراوغة	حكم بالإرهاب	
	سيطرة		تملّق	إستبداد	
			غدر		
			تعمد الكذب والمغالطة		

كما ورد في سلاسل الكتب الأخرى، فالغرب هو استعماري، ومحارب، يسيطر على الشعوب الضعيفة متذرعاً بأية حجة. وهو في تعامله مع الآخرين مخادع ومراوغ يعتمد على الكذب والمغالطة والتملق. ولكن هذا المستعمر ليس ذاته في الدول الأوروبية المستعمرة. فالإنكليز واقعيون، والفرنسيون قوميون متطرفون أرادوا فرنسة المستعمرات والسيطرة على مواردها. أما موقف الدول الاستعمارية الصغيرة مثل هولندا وبلجيكا والبرتغال فهي أكثر تصلباً.(٥٠) كذلك يعمم الكتاب صفة

(٥٠) انظر شفيق جحا وآخرون، **المصور في التاريخ**، الجزء الحادي عشر، بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٠، ص. ٤٢٣ ـ ٤٢٤.

الاستعماري على كل الغرب. فعند الكلام عن اغتصاب اليهود لأرض فلسطين يشير إلى حصول ذلك «بالتواطؤ مع الاستعمارين البريطاني والأميركي.[٥١] والمعروف أن أميركا دولة غير استعمارية. وقد ساهمت بطريقة أو بأخرى بإنهاء الاستعمار إبتداء من نهاية الحرب العالمية الأولى.

أما إذا أخذنا صورة بعض القادة الأوروبيين في هذه الكتب، فنجد أن العلماني غير مستحب كالجنرال ساراي الذي «عرف بكرهه لرجال الدين لأنه علماني». أو الصورة الإيجابية عن نابوليون بونابرت الذي كان يغزو جيرانه لأي سبب. أو صورة هتلر الذي يُرى بأنه مواطن وقائد عانى من انهزام وطنه ويعمل ـ ولو بأسلوب متطرف ـ على إنقاذ ألمانيا.[٥٢] أليس في أجزاء هذه الصور مسحة من الحكم القيمي، Value judgement؟ كذلك يتمتع الغربي بكل صفات الخداع، فهو يستغل طيبة الشعوب، ويتملق إلى القوي ويغدر بمن يثقون به. وهذا الغرب هو استبدادي في معظم تاريخه وإرهابي «إذ إنَّ الإنكليز مارسوا الإرهاب ضد السودانيين عندما احتلوا بلدهم». بينما الديموقراطية فهي لأبناء المجتمع الغربي ولا يعممونها على غيرهم.

أما الصورة الاقتصادية ـ الاجتماعية فتعكس ما كان سائداً في أوروبا من استغلال الطبقات الأرستقراطية للفلاحين والرأسمالية للعمال. وكيف كانوا يشغّلون الأطفال ليجنوا أرباحاً من خلال الأجور المنخفضة التي يدفعونها لهم. وعلى الصعيد الديني، هناك وجه إيجابي لصورة الكنيسة. «دافعت الكنيسة الكاثوليكية عن المظلومين وأسست الملاجىء لإيواء الأرامل والأيتام والعجزة وأنشأت المدارس والمكتبات ومراكز التعليم العالي.[٥٣] والوجه السلبي لهذه الصورة نراه ينعكس عندما تتعامل الكنيسة الغربية مع الشرق إذ كان «إنشاء المدارس أيام المتصرفية وسيلة لنشرها مذاهب المرسلين الدينية.[٥٤] فالانتهازية وسياسة الغاية تبرر الوسيلة هي المستعملة في الكنيسة الغربية عندما تتعاطى مع شعوبنا، هذا هو الانطباع.

---

(٥١) المرجع السابق، ص. ٤٢٩.

(٥٢) أنظر شفيق جحا وآخرون، **المصوّر في التاريخ**، الجزء العاشر، بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٨، ص. ١٣٢ ـ ١٦٠.

(٥٣) شفيق جحا وآخرون، **المصور في التاريخ**، الجزء الخامس، بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٧٩، ص. ٢٣٤.

(٥٤) شفيق جحا وآخرون، **المصور في التاريخ**، الجزء السابع، بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٧، ص. ٢٣٣.

تشيد هذه السلسلة بالإنجازات الثقافية للغرب في كل الحقول، فإذا بالفيلسوف والفنان والطبيب والعالم والرحالة والبحّار، «وهذا الفلورنسي العظيم» (ميكال أنجلو)... ثم تظهر أنانية الغرب حتى في الحقل الثقافي إذ «سعى الفرنسيون إلى نشر الثقافة الفرنسية في البلاد ولو أدّى ذلك إلى إضعاف اللغة القومية وتقويض دعائم الثقافة العربية»(٥٥).

أما وضع المرأة ودورها فقد عانى من تغييب شبه كلّي يفوق الحالة التي مرّت في سلاسل الكتب الأخرى.

السلسلة الأخيرة من كتب التاريخ هي **المضيء في التاريخ**. (غير مكتملة إذ فيها كتاب واحد للمرحلة المتوسطة وكتابان للمرحلة الثانوية. وربما المؤلف ما زال يتابع تأليف باقي الأجزاء). والدروس التي تناولت الغرب، والغرب والشرق توزعت على الشكل التالي:

جدول ١٨:

حجم المادة عن الغرب في سلسلة المضيء في التاريخ

الصف	توزيع الدروس					
	دروس الكتاب	الدروس عن الغرب	٪	الدروس المرتبطة بالغرب	٪	المجموع
متوسط رابع	٣٦	٣	٨,٣٣	٢٧	٧٥	٨٣,٣٣
ثانوي أول	٢٩	٧	٢٤,١٣	-	-	٢٤,١٣
ثانوي ثالث	٣٩	٨	٢٠,٥١	٢٦	٦٦,٦٦	٨٧,١٧
المجموع	١٠٤	١٨	١٧,٣	٥٣	٥٠,٩٦	٦٨,٢٦

بالرغم من عدم اكتمال هذه السلسلة، إلا أن نسبة ٦٨,٣٦٪ التي خصصت للغرب أو ما اتصل به هي عالية. وهذا يعكس اهتمام المؤلف بالتطورات في تاريخ الغرب وتاريخنا، ومحاولة للاستجابة لمحتوى المنهاج أيضاً. أما توزيع الدروس الـ ٧١ على الفترات الزمنية الثلاث فقد أتى كالتالي:

(٥٥) جحا، **المصور في التاريخ**، الجزء العاشر، ص ١٩٣.

- خمسة دروس عن فترة ما قبل المسيح.
- درسان منذ المسيحية حتى عصر التنوير.
- ٦٤ درساً عن الغرب منذ التنوير حتى الآن، أي ٩٠,١٤٪ من مجموع الدروس.

وهذا يفسّر مجدداً إهتمام الشرق أو العرب بتاريخ أوروبا الحديث نظراً لارتباطه بتطور الأحداث العالمية، والأحداث في شرقنا بشكل خاص.

أما النواحي التي تناولتها الكتب الثلاثة والصور التي رسمتها عن الغرب فيمكن تفصيلها سياسياً واقتصادياً واجتماعياً بالجداول التالية:

جدول ١٩:

عناصر الصورة السياسية للغرب في سلسلة المضيء في التاريخ

التعابير المستعملة	عناصر صورة الغرب				
	الحربي	الاستعماري	المخادع	الاستبدادي	الديموقراطي
تعابير الوصف المستعملة	إنذار قصف إستسلام إطلاق نار مذابح إرسال أسلحة	تسلط سيطرة إستغلال وضع اليد تغيير النظام تهنيد العراق إستيطان ضمّ أطماع	عدم الوفاء إندساس إختلاق تذرع	الآمر الناهي إستعباد إرهاق الشعب قساوة، إعدام وحشية، تعسفية حكماً مطلقاً إساءة معاملة إنتهاك حرمة إرهاب فرض السخرة إذلال، قمع	سياسة تهدئة لغة حوار وضع دستور مبادىء ديموقراطية

إن عناصر هذه الصورة كما وردت في الكتب هي ما طبقها الغربي على بلاد

الشرق، باستثناء ما ورد تحت عنوان «ديموقراطي». فهذه خاصة بمجتمعات الغرب. وقد أظهرت هذه السلسلة غنى في كمية التعابير ذات الدلالة السلبية لصورة الغرب السياسي. فهو ينذر، يقصف، يذبح، ثم يتسلط ويستغل، ويغير قومية البلد (تهنيد العراق)، ويضم... كذلك الغرب والغربي استبدادي بامتياز كما تظهر التعابير في عامود «الاستبدادي». ولكن هذا الغرب يمارس الديمقراطية في مجتمعاته حيث نستشف ثناء خفياً على الفلاسفة ورجال الدولة الذين تناولت الكتب أفكارهم وإنجازاتهم وإصلاحاتهم في بلدانهم.

أما عناصر الصورة الاقتصادية ـ الاجتماعية للغربي، فتظهر أهم عناصرها في الجدول ٢٠.

جدول ٢٠:

عناصر الصورة الاقتصادية ـ الاجتماعية للغرب في سلسلة المضيء في التاريخ

التعابير المستعملة	عناصر صورة الغرب					
	الاقتصادي		الاجتماعي			
	انتاجي	إستغلالي	الطبقي	الديني	الثقافي	الجندري
تعابير الوصف المستعملة	حصول على مواد أولية إهتمام بالزراعة إيجاد أسواق تصريف منتوجات نشاط تجاري	سيطرة على مرافق البلاد فرض السخرة حصول على أموال مصادرة أراضٍ إغتصاب ثروات إستيطان ومصادرة	مجتمع إقطاعي إرتباط رضائي السيد والتابع طبقة غنية	تفرقة طائفية إلغاء للزوايا الدينية مصادرة أملاك الأوقاف	محاربة اللغة العربية فرض اللغة الفرنسية فرض الهوية الفرنسية نهضة ثقافية	

إذا أردنا التمييز بين نوعي الدلالة التي حملتها هذه التعابير نجد أنّ الاهتمام بالزراعة والنشاط التجاري الذي أبداه الغربيون كان لمجتمعاتهم، أما جعل البلاد سوقاً لتصريف الإنتاج، والحصول على المواد الأولية والسيطرة على مرافق البلاد فهو ما طبقوه على الآخرين. فالغربي يحب السيطرة التجارية ولا يتردد في استعمال أية وسيلة لضمان مصالحه وأرباحه. وهو يأخذ الأرض من أصحابها ليوطّن بها غربياً آخر. بالرغم من ذلك، فالتناقض يظهر في شخصيته الاقتصادية الاستغلالية لأنه لا يتردد أيضاً في مقاتلة غربي آخر لأجل مصالحه. «فالتوسع الاستعماري والدوافع الاقتصادية قادت الأوروبيين إلى أعظم قتال في التاريخ».[٥٦]

ويظهر أن الكتب الثلاثة لم تركز على الصورة الاجتماعية للغربي في الغرب، باستثناء ما تطرقت إليه بشكل سريع عن المجتمع الإقطاعي والارتباط الرضائي الذي نشأ بين التابع والسيد الإقطاعي. لكن هناك موقفاً ظاهراً من العنصر الديني حيث يستعمل، إضافة إلى العنصر الثقافي، للتفرقة الدينية والمذهبية كما حصل في العراق حيث لجأ الإنكليز إلى «اعتماد سياسة التفرقة الطائفية (شيعة، سنة). وتفكيك العراق إلى أكبر عدد من الوحدات.[٥٧] أما بالنسبة للناحية الثقافية، فلدينا صورة ذات وجهين مختلفين: الوجه المرتبط بالعرب حيث يحارب الغرب لغتهم ويفرض لغته (الفرنسية غالباً) وهويته عليهم (كما حصل في الجزائر) وذلك لطمس هوية العرب الثقافية. أما الوجه الآخر المرتبط بالغرب، فتستعرض السلسلة بعض الإنجازات الثقافية للغرب مركّزة على أبرز المساهمين بها أمثال بترارك، ومكيافلي، ورابليه، وميكال أنجلو، وسرفنتس... بينما لم يظهر دور المرأة في هذه الكتب أيضاً، حيث هناك تغييب لصورة نصف المجتمع الغربي.

بشكل عام، إن الصورة التي ترسمها هذه السلسلة للغرب فيها نواح إيجابية محدودة وضيقة، بينما تستطرد في النواحي السلبية إنطلاقاً من النظرة إلى الاستعمار الأوروبي لأغلب بلدان الوطن العربي. فالأزمات ـ كأزمة مراكش ـ وقعت بسبب أطماع الدول الاستعمارية لضمّ دول أخرى لأمبراطوريتها. والمفوض السامي كان يمارس الأعمال التعسفية ومضايقة اللبنانيين وزجّهم في السجون.[٥٨] هنا إبراز ثم

(٥٦) سمير الأتات، **المضيء في التاريخ**، الثالث ثانوي، بيروت: لاناشر، ١٩٩٥، ص. ٢٩٠.

(٥٧) المرجع السابق، ص. ١٧٠.

(٥٨) أنظر سمير الأتات، **المضيء في التاريخ**، السنة الرابعة المتوسطة بيروت: لا ناشر، ١٩٩٧، ص. ٨١.

تركيز على أية ناحية غير مستحبة في صورة الغربيين.

إستنتاجات

بالإضافة إلى الاستنتاجات التي وردت في التحليل الكمّي والنوعي لمحتوى كل سلسلة (أو حتى كتاب) تناولتها الدراسة، لا بدّ من عرض الاستنتاجات العامة حول الصورة التي ترسمها الكتب المدرسية اللبنانية للغرب وللغربي، والتي تترك انطباعاً ما عند التلميذ يؤثر على موقفه من هذا الغرب.

فالقصص تنتهي دائماً بطريقة حسنة ويكون أبطالها أناساً عاديين يعملون بصدق وجدّ، ويتصرفون بقناعات مبنية على مبادىء أخلاقية سامية. فهذا الرجل الذي لا يراعي شعور ضيفه على حساب مواقفه الأخلاقية، وذاك الطفل الذي يجنّد أهله ومعارفه، ولا يرتاح إلا بعد أن تقطع شركة الكهرباء التيار ليتحرر طائر السنونو من الشريط الذي علق به، وتلك جون التي حلمت وصممت أن تقود طائرة من فرنسا إلى المغرب، وقد حققت ذلك بفضل الجهد الذي بذلته والعلم الذي حصلته. كذلك ظهرت المرأة الغربية في هذه الكتب على أنها صاحبة دور فعّال. فهناك «المعلمة المثالية»، والأم تريزا، وقائدة الطائرة، ووالدة أديسون تشجعه وترعاه... فالمرأة في الغرب صاحبة مبادرة وصاحبة مهمة أووظيفة. فهي ليست تابعاً للرجل، وليس تصرّفها ردّة فعل لقراره.

كذلك تضمنت الكتب بعض الصور السلبية للغرب. من قائد عسكري يقصف دمشق بلا شفقة إلى مدينة يضيع فيها الإنسان ويتحول إلى جماد متحرك، وإلى مدينة امتلأت بالشرور والفساد وأصبحت على شفير الهاوية.

وقد أعطيت النخب العلمية مكاناً في نصوص الكتب أو ملحقاتها حيث تطرقت إلى المخترعين والمبدعين والموسيقيين، ورواد الفضاء وغيرهم. وبالرغم من محاولة طمس بعض جوانب الصورة الإيجابية والمؤثرة في بعض الكتب، سلّطت كتب أخرى عليها الضوء بأسلوب فيه من المدح والثناء بما يحوّل هؤلاء إلى نماذج أو مثال للتلامذة.

وهكذا يتبين أن كتب القراءة والأدب عندنا لا تنقل بشكل منسجم صورة واحدة عن الغرب بل تنقل ثلاثة أنواع من الصور: الغرب الإنساني والخلاّق والمبدع؛ والغرب العقلاني؛ والغرب السيئ الذي سينهار. صور فيها من الاختلاف والتناقض

ما يجعل المرء بحيرة حول الهدف من ذلك، إلا الشك بأن أغلبيتها مقولبة أي مبنية على رؤية مسبقة لهذا الغرب إن كانت إيجابية أم سلبية. لكن الصورة الإيجابية تسللت إلى أفكارنا بطريقة سلسلة وهادئة من خلال القصة والوجدانيات والحوار والسيرة والوصف المفعم بالإعجاب، ومن خلال الأسلوب الجيد والعبارات المستعملة ذات الدلالات الحسنة. بينما أتت الصورة السلبية غالباً وكأنها مفروضة فرضاً أو كأنها طلب إلى التلميذ أن يعتقد أو يرى الغرب هكذا.

كذلك عالجت النصوص ناقلة هذه الصور النواحي الحياتية اليومية في الغرب مكتفية بالمظاهر الحسنة دون التطرق إلى تلك السلبية التي يعاني منها المجتمع الغربي كارتفاع مستوى الجريمة والانحراف والتفكك العائلي الذي بات ظاهرة إجتماعية سيئة. لذلك بقيت لنا الصورة الفرحة والقريبة من المثالية.

وفي باب «الفوائد العلمية»، أو ما شابه من عناوين، والذي تناولته كل الكتب تقريباً بطريقة أو بأخرى، كان هناك تشابه في الأفكار مع اختلاف في العرض. إذ تكاد العناوين أن تتشابه في كتب الصف ذاته لكن بطرق مختلفة حيث كان الأسلوب الحيادي الجاف يتجنب ذكر أسماء علماء من الغرب أحياناً، يقابله أسلوب متعاطف يبرز العلماء والمبدعين بإطراء على إنجازاتهم التي تخطت إفادتها بلدانهم لتشمل العالم كله. فنيويورك مدينة عظيمة مرة، ومرة ثانية تراكمات من الناس والأبنية على حياة فيها. و«عباس بن فرناس أول من حاول الطيران عندنا»، يقابله في كتاب آخر قصة الأخوين منغولفيه اللذين حلّقا بالمنطاد ولأول مرّة في تاريخ البشرية لجعل «ذاك اليوم عظيماً». نعود ونقول إن هذه الصورة للغرب بأنواعها الثلاثة، ليست ذاتها في سلاسل كتب القراءة عندنا ربما لأن خلقية مؤلفيها مختلفة وقد انعكست على ما اختاروه من نصوص لكتبهم.

أما ما خصّ مادة التاريخ فإن حجم المادة المخصصة للغرب أو المرتبطة به كان هاماً والقسم الأكبر كان عن تاريخ الغرب في القرون الثلاثة الأخيرة. لقد حظي غرب ما قبل المسيحية بصورة أكثر إيجابية من تلك في الفترة الممتدة منذ المسيحية حتى عصر التنوير، أو الفترة منذ التنوير حتى اليوم. ويعود السبب بذلك إلى عدم وجود خلاف أو صراع مباشر بين العرب والرومان أو اليونان في تلك الحقبة. لكن بعد نشأة الإسلام والخلاف الذي تطور إلى حروب وفتوحات، وردات فعل من أوروبا بواسطة الحروب الصليبية، ولاحقاً بحركة الاستعمار، أثّرت على صورة الغرب الذي

أصبح مصدر أذيّة للشرق. فعند الحديث عن الاستعمار، تتشوّش الصورة قليلاً، ويصبح كل غربي مستعمراً. كذلك تلقي الكتب باللائمة على الغربيين عن النكبات التي أصابت المجتمعات العربية من تقسيم الوطن العربي بعد انهزام العثمانيين، ودعم اليهود في فلسطين، وغيرها. لكن صورة الغرب لا تعود وتظهر واضحة بعد الخمسينات لأن مادة التاريخ المدرسية، وبحسب مناهجنا، تتوقف هناك. لذلك تبقى الصورة التي فيها من الإشراق بعيدة عن ذهن التلميذ حيث اعترف الغرب بأخطائه وبسوء ممارساته ضد الشعوب التي استعمرها. وها هو يرعى عدداً هائلاً من مشاريع التنمية في بلدان العالم الثالث، ويدافع عن حقوق المواطنين المعتدى عليها من قبل حكامهم الوطنيين. إن التقصير في إظهار كل جوانب الصورة هو مأخذ سلبي على هذه الكتب التي استعملت تعابير مختلفة لعمل واحد فأتت دلالاتها متباينة. على سبيل المثال، عندما يحتل العرب بلاداً في أوروبا أو غيرها، تصف الكتب ذلك «بالفتح العربي»، وعندما تحتل بريطانيا مصر تصفها «بالاستعمار البريطاني لمصر». وكذلك عند التطرق إلى موضوع الرقّ في الغرب، خصوصاً في أميركا، تبرز الكتب الدور البشع للغربي الأبيض في تجارة العبيد، بينما لا تتطرق من قريب أو بعيد إلى بعض العرب الذين قاموا بذلك أيضاً. لكن هل كل الكتب تتشارك في رسم صورة واحدة للغرب؟ الجواب الأولي المستند إلى تحليل محتوى النصوص هو لا. إذ أنّ التباين يظهر في أماكن عديدة، وعلى سبيل المثال في تعريف الحروب الصليبية، أو عند وصف الانتداب الفرنسي في لبنان حيث تقارب بعض الكتب هذين الموضوعين بسلبية أكثر من غيرها.

أمّا صورة الغرب الاستعماري، والتي ما تزال تنسحب عليه حتى اليوم، فسيئة بمجملها. فهو يهاجم البلدان الآمنة ليسيطر عليها ويسلبها خيراتها، ويسخّر أبناءها للعمل من أجله، وهو قاسٍ في تصرفاته مع أهل البلاد الأصليين. إستبدادي دون أي حق. يستعمل القوة مع الناس لأتفه الأسباب، يحكم بشكل مطلق، ويستخدم الإرهاب ليعاقب أو ينتقم أو ليخنق الحريات. يقابل ذلك ديمقراطية الغربي في مجتمعه (بعد حصول الإصلاحات السياسية)، ولكنه يتخلى عن مبادىء الديمقراطية عندما يتعامل مع الآخرين. وفي تصرفاته، إنه مخادع لا يتوانى عن الكذب لتحقيق غاياته. إذ لا يشعر بالذنب عندما يعد ولا يفي، أو إذا طعن أصدقاءه في الظهر، وكأنه يطبّق مبدأ الغاية تبرر الوسيلة.

أمّا الغرب الاقتصادي فهو عبد المصالح والأرباح. لذلك يتحول إلى مجتمع

استغلالي داخلياً وخارجياً، حيث يستغل القوي الضعيف في ظل النظامين الإقطاعي والرأسمالي، حتى أن الملامح الإنسانية تغيب عن صورته لتطغى ملامح الطمع والجشع.

الغرب الاجتماعي هو مجتمع الطبقات والامتيازات، ونادراً مجتمع المساواة والإنسان. الرجل هو المسيطر دائماً. فهو القائد العسكري، هو الحاكم، والفيلسوف، والمخترع، والفنان... بينما صورة المرأة الغربية مهمّشة في هذه الكتب. فهل يعود السبب لكون مؤلفي كتب التاريخ عندنا ذكوراً فقط؟ أم أن طابع مجتمعنا الذكوري يعكس مواقفه «الجندرية» حتى في القضايا التربوية؟ كذلك لم تركز الكتب ـ إلا عرضاً ـ على حياة الناس العاديين، بل ركّزت على النخب السياسية والعسكرية والعلمية ولم ترسم صورة واضحة عن حياتهم اليومية، نضالاتهم، معاناتهم، وإنجازاتهم.

أمّا صورة الغرب الثقافية فكانت الأكثر لمعاناً في كتب التاريخ حيث استعرضت إنجازاته في سائر حقول العلم والمعرفة والتكنولوجيا، وظهرت إسهاماته في تطوّر الحضارة العالمية.

فصورة الغرب والغربي في كتبنا ليست منسجمة مع ذاتها، وليست منسجمة مع بعضها. ويظهر بأنها تأثرت بالخلفية الثقافية وحتى الإيديولوجية للمؤلفين ممّا جعلها مقولبة بمعظمها، نابعة من رؤية مسبقة، ومصبوغة بكم قيمي. إذ أنّ قناعات الناس العاديين أو حكمهم المسبق على الآخرين والعالقة بأذهانهم تؤثر على مؤلفي الكتب. عندما تكون هذه الأحكام المسبقة مختلفة، لا بدّ وأن تنعكس على الصورة الواردة في الكتاب. أليست فرنسا «الأم الحنوني» لبعض اللبنانيين، «وباريز مربط خيلنا» للبعض الآخر؟ كذلك يتأثر المؤلفون بالجمهور الذي يكتبون له: هل هم تلامذة المدارس الرسمية؟ الخاصة المسيحية؟ الخاصة الإسلامية؟

فالغرب كما كل المجتمعات، فيه سوء كما فيه خير. فلماذا ركّزت الكتب المدرسية اللبنانية، خصوصاً كتب التاريخ على النواحي السلبية؟ هل هذا العمل ردّة فعل على الطريقة التي يصوّر بها الغرب العرب في الصحافة أو الكتب المدرسية كما سبق وعرضنا؟

تبيّن عند عرض صورة العرب في الغرب كيف كانت مقولبة ومنحازة وغير

واقعية، فيها من التجنّي أكثر مما فيها من الحقائق؛ وكذلك عند دراسة صورة الغرب في كتبنا تبيّن أننا لسنا بعيدين عن هذا الأسلوب بتصوير الغرب أكثر سلبية ممّا كان أو ممّا هو عليه الآن. فهل نستمر بتزويد أجيالنا معارف مصاغة ومشحونة بالعاطفة لتؤثر في مواقفهم سلباً نحو الآخرين؟ بكلام آخر، هل ندرّس التاريخ للانتقام أم للاتعاظ من الماضي وعدم تكرار الخطأ؟ فإذا لم يطرح الغربيون هكذا سؤالاً على أنفسهم لماذا لا نطرحه نحن ونكون البادئين في تغيير مقاربتنا لتاريخهم ولثقافتهم بأسلوب واقعي بعيداً عن التجنّي أو المماقة؟

المصادر

كتب اللغة العربية

أبو حاقة، أحمد وآخرون، **المفيد في الأدب العربي**، أول ثانوي. بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٩٨.

حداد، إلياس وآخرون. **عقود الكلام: قراءة وتعبير**، أول، ثانٍ، ثالث، ورابع إبتدائي. بيروت: دار المشرق، ١٩٩٨.

زبليط، منى وآخرون. **القراءة المنهجية**، السنة السابعة الأساسية. بيروت: دار الفكر اللبناني، ١٩٩٨.

لبكي، عبده. **قراءتي المصورة**، أول، ثانٍ، وثالث إبتدائي. زوق مكايل: مكتبة نوفل، لاتا.

لبكي، عبده. **كلمات وصور**، رابع وخامس إبتدائي. زوق مكايل: مكتبة نوفل، ١٩٨٦.

لبكي، عبده. **أجنحة وآفاق**،أول، ثانٍ، ثالث، ورابع متوسط. بيروت: دار الإبداع، ١٩٩١ ـ ١٩٩٤.

لبكي، عبده. **حصاد الكلمات**، رابع إبتدائي. بيروت: دار الإبداع، ١٩٩٨.

مكّي، صادق وآخرون. **القراءة والتعبير**، أول، ثانٍ، ثالث، رابع، وخامس إبتدائي. بيروت: دار بدران، ١٩٩٦.

كتب التاريخ.

أبو فاضل، وهيب وآخرون. **التاريخ العلمي الحديث**، أول ثانٍ، وثالث ثانوي.

زوق مكايل: مكتبة حبيب، ١٩٩٥.

الأتات، سمير. **المضيء في التاريخ**، رابع متوسط، أول وثانٍ ثانوي. بيروت: لانا، ١٩٩٥، ١٩٩٧.

جحا، شفيق وآخرون. **المصور في التاريخ**، أول، ثانٍ، ثالث، ورابع متوسط؛ أول، ثانٍ، وثالث ثانوي. بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٧٩ ـ ١٩٨٨.

حايك، جان وآخرون. **التاريخ العلمي**، أول، ثانٍ، ثالث، ورابع متوسط. زوق مكايل: مكتبة حبيب، ١٩٩١ ـ ١٩٩٦.

سلامة، منير، وفيصل شرارة وآخرون. **الوافي في التاريخ**، ثانٍ، ثالث، ورابع متوسط. أول، ثانٍ، وثالث ثانوي. بيروت: دار الفكر اللبناني، ١٩٩٠ ـ ١٩٩٦.

المركز التربوي للبحوث والإنماء. **التايخ**، ثان، ثالث، رابع، خامس إبتدائي. بيروت: منشورات المركز التربوي، ١٩٩٨. (لا تاريخ لكتاب الرابع الإبتدائي).

المركز الوطني للمعلومات والدراسات. **التاريخ**، رابع وخامس إبتدائي، أول، ثان، وثالث متوسط بيروت: الدار التقدمية للنشر، ١٩٨٦ ـ ١٩٩٠.

المراجع

ساري، حلمي خضر. **صورة العرب في الصحافة البريطانية**، ترجمة عطا عبد الوهاب، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٨.

سمعان، ميخائيل. **صورة العرب في عقول الأميركيين**، ترجمة عطا عبد الوهّاب. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٧.

مسلّم، سامي. **صورة العرب في صحافة ألمانيا الإتحادية**. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٦.

نصر، مارلين. **صورة العرب والإسلام في الكتب المدرسية الفرنسية**. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٥.

Slade, Shelley. «The Image of the Arab in America: Analysis of a Poll on American Attitudes». Middle East Journal 35, 2 (Spring 1981).